شهوات النعناع

حكايا الأغنيات المهاجرة

رواية

أسامة الطيب

شهوات النعناع
المؤلف : أسامة الطيب

لوحة الغلاف وتصميمه :
للفنان التشكيلي : عبد العزيز عبد الماجد

الطبعة الأولي : مايو 2018
رقم الإيداع : 2018/8991
الترقيم الدولي : 978-977-769-220-5

جميع حقوق الطبع محفوظه
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 4 شارع محمد مظلوم
- من صبري أبوعلم - عمارة أنور
وجدي - الدور الثاني - مكتب 25
م : 01010490247

الإهداء:

- إلى والدي، معاوية الطيب، كلّ أقلامي بعض أحباره، وكلّ أحرفي بعض كلماته، وكلّ أحلامي بعض هواجسه.

- إلى والدتي، فتحية عبّاس، كليّ بعضُ نِثار يدها في تربة الحنين والجسارة، كلّي بعض ابتسامتها المنتصرة والموجوعة.

- إلى أحمد، أسيل، صَبا، آلاء، أحفادهما في بيتنا الكبير، أزهارهما في حديقة الحياة الباهرة، فكرتهما التي ما زالت سقوفها ترتفع.

- وإلى شهداء حركة النضال الاجتماعي والسياسي جميعًا في علياء مجدهم.

– هذه الرواية من نسج الخيال، أي شبه بين أشخاصها أو أحداثها أو أماكنها مع أشخاص حقيقيين وأحداث وأماكن حقيقية، لا يعدو كونه محض مصادفة، وأمر يعود لغرائب الكون .

- وردت في هذه الرواية بعض أبيات شعرية، وأغنيات، مثل«اسمعنا يا ليل السجون» للشاعر الأستاذ الراحل محجوب شريف» و«كيفن تسافر تاخد قليبي معاك والعين تساهر «الكلمات والألحان للشاعر الأستاذ «كمال حسن محمد» والأداء للفنان الراحل «سيف الأراك» ، لهم مني غاية التقدير والامتنان والمحبة .

«لا تحفروا لي قبرًا
سأرقد في كل شبر من الأرض
أرقد كالماء في جسد النيل
أرقد كالشمس فوق حقول بلادي
مثلي أنا ليس يسكن قبرًا
لقد وقفوا..
ووقفتَ..
- لماذا يظن الطغاة الصغار
- وتشحب ألوانهم -
إن موت المناضل موت القضية
أعلم سر احتكام الطغاة إلى البندقية
لا خائفًا..
إن صوتي مشنقة للطغاة جميعا
ولا نادمًا..
إن روحي مثقلة بالغضب

كل طاغية صنم.. دمية من خشب
..وتبسمت
كل الطغاة دُمىً
ربما حسب الصنم، الدمية المستبدة
وهو يعلق أوسمة الموت
فوق صدور الرجال
إنه بطل ما يزال»

محمد مفتاح الفيتورى

أغنيات الحنين

- 1 -

لا شيء يفصل بين الذاكرة والموت
لا شيء مطلقًا
الذاكرة هي النبتة الأولى للموت
الموت هو حصاد الذاكرة...
استيقظت...

لم أنم أصلًا، ولكني أحسست بأن الكون رحل لعالم آخر منذ ما يزيد على الساعة، فقط تداعت قططٌ وأرانب صغيرات للحبو فوق أقدامي، يلعقن بألسنتهنّ على صدري المفتوح، لم أستيقظ، ذهبت القطط والأرانب عن قدمي وصدري فطالعني الكون من جديد بنافذته ساخنة الهواء، أحسّ بنيرانه مع كل نَفَس.

الغرفة تغرق في بياضها المشبوه...
لماذا لا ننعم في هذا البياض حين نكون في كامل صحتنا؟
لماذا نختزل البياض لأسرّة المستشفيات؟
ولماذا يطاردنا بياض المستشفيات بكل هذا السواد؟

الغرفة ليست ضيقة، ولكنّ الصوت الذي يصدره بابها، أرهق صحويَ المتقطع، ورغمًا عن أن «ابتسام» تعمل كل جهدها على ألَّا يحرِّكه أحد، ولكن صوته سكن أعصابي، وما عاد يضير إن بقيَ مفتوحًا أو مغلقًا، فوق رأسي تمامًا، تتقاطع أسلاكٌ وأنابيب وأجهزة، لا أحفل بها كثيرًا، ولكنها تحفِّزني كثيرًا على الخوف، السرير يذكرني بالموت... الموت؟

أنا لا أنسى الموت...

لأن هذه هي سطوته...

الفرق بين الحياة والموت هي أن الموت يظلُّ يذكِّرُك بما يأخذ

والحياة تظلُّ تشغلك بما تُعطي...

الموت يحلِّق حولك...

والحياة تجعلك تحلِّق حولها دائما

والموت يحلِّق حولي الآن، أحسّه في دفقات الدم الباردة، التي تتنزل من الأنبوب البلاستيكي المعلّق على الحامل إلى قلبي، أحسّها تجري بمعزلٍ عن بقية دمي، حتي كأنها تجرح في شراييني، السرير يرتفع من منتصفه قليلًا، ويزيد ارتفاعه تدريجيًا باتجاه الرأس، أبدو جالسًا أكثر منِّي راقدًا، تصرُّ الممرضات أن يزرعن تحت رأسي وساداتٍ ضخمة، أنا أعرف الوسادات هذه جيدًا، طالما زُرعت تحت صديقٍ ومضى دون أثر لجذوره عليها بعد أن يطبعها على أحداقنا الباكية، طالما

تركته يسافر واستأثرت بطعم حياته، تكتم نَفَسي بداعي المساعدة على التنفُّس، حين تُسلمك الليالي إلى مساعدة الوسادات عليك بنسيان الحياة!

الوسادات هي التربة التي يزرع المرضى عليها أحلام تشبثهم بالحياة !!

ولكن الدموع المالحة تحول دون إنباتها، الدموع تغلِّفها وتحتفظ بها طازجةً للمرضى القادمين، وما إن تصافحها صفحة وجهٍ جديد، حتى تبوح له بكل أهوال الموت، والوحشة، والفراق.

الوسادات، على نصاعة لونها، ورقَّة ملمسها، تبدو كوحشٍ عظيم، يجثُم على الماضي والحاضر.

تحيط بهما، بقسوةٍ بالغة، لا يكاد يستبينها المرافقون.

لذا تراهم يجتهدون في تعديل وضعها، وهم لا يدرون أي حجارةٍ يرصُّون تحت جسدك المنهك، أي أمواسٍ يوزعونها بدأب شديد بين عروقك المنفطرة، وأي حشائش يابسة يقدحون فيها خراطيم النيران.

الوسادات تغرقني في نزيفٍ غريب وليس من حيلةٍ سوى الغرق

غرقٌ مميتٌ كالحياةِ هناك في غَيَابات الأصدقاء الراحلين...

لماذا يرحل الأصدقاء؟

سؤالٌ يّلحُّ عليَّ كثيرًا هذه الأيام...

الأصدقاء لا يرحلون

هم يسافرون ويتركون الذاكرة تفتح نيرانها على قمصاننا الرهيفة فيتصدَّى القلب...

الأصدقاء لا يرحلون...

فقط يحملون حقائبنا معهم في سفرهم هذا ونظلُّ عرايا في انتظار حقائبنا وعودتهم المستحيلة...

الأصدقاء لا يرحلون

ينتقلون للعيش بداخلنا... يسكنون في العصب... ويتناوبون على مطالعة غُرف القلب غُرفةً غُرفة... يخلعون ابتساماتهم وكلماتهم الهادئة ويتكئون قليلًا قبل أن يعلِّقوا ذكرياتهم على مشجب الحلق... ثم يطفئوا الأنوار... فيشتعل النبض.

الأصدقاء لا يرحلون...

هم فقط يوقِّعُون على دفتر العمر حزنًا لا كالحزن... غريبُ الحبر والقلم والورق

حزنًا من خطوات الحياة السابقة... وتطلعات الموت المقبل

حزنًا كأناشيد لم تكتمل ألحانها بين أوتار كمنجةٍ مكسورة

حزنًا كهمهماتٍ متفلتةٍ تساقطت متسارعة حين غابت آخر المآذن عن عينيك في سفرٍ طويلٍ.

حزنًا كمركبٍ وحيدةٍ أسلمتها الأمواج لمسكنة المصير المجهول

فتقلَّمت ألواحها بالحسرة

حزنًا هو العريُ الأبديّ... في مواجهة صخب تحديقات المارة...

العريُ الذي كلما سترناه بالأشواق فضحناه... ونشرتنا الفضيحة

الحياة على كل كبرها أصغر من أن تقف في وجه الموت

آهٍ... ما أقوى هذا الشيء... الموت

ولكن...

حين يمنحك الموت راحة أن تذكر حياتك كلها فليس أجمل من أن تفعله

حين يتحول الموت إلى نعناعةٍ تصنع للذاكرة شايها العظيم

شايها الذي كلما ارتشفت منه امتلأت كأسك بالحنين والسهر والحمى

نعناعة تحيط الموت بنكهة الحياة فيصحو الأسف... وتخيط قميص رعشتك بالأحداث والمواقف فيتْلَف الصبر.

–

المروحة التي تتعلق بيني وبين السقف تعمل في هدوء مميت... أشعر بهوائها يتسرَّبني ككأسٍ وحيدة في ليل غريب... كلما أحسست بقرب امتلاكه لي كلما ازددت حرصًا على بقايا كأسي، فأفرغت جوفي من وخزها واحتسيت نهايات نكهتها الممضة... فتفرَّغ ليَ الليل

بجيوش ظلمته وهواجسها

وأنا أقرأ الغياب فيها لا في وجوه أصحابي...

أظن أن وظيفتها ليست إرسال هواء نقيّ لرئتيّ الفاسدتين ولكنها فقط تشويش صورة السقف في ذهني... كنت وأنا أغني أنظر للسقف... لا أنظر إلى أحد... أقرأ فيه كل معاني أغنياتي... كل أحبائي... كان أبي... يا لأبي... كان يسكن السقف حين أغني... أمي وحبيبتي وأصدقائي كانوا يحلِّقون بين العود والعزف والسقف... المروحة تصرّ أن تشوِّش الصورة أمامي الآن وأنا أغرق في بياض الغرفة المشبوه

أين حلقي؟ يا للنكتة!!

آهٍ... عادت القطط والأرانب للحبو فوق أقدامي

عادت لتلعق ما تبقى من صدري

أحس بحركتها كضحكاتٍ ناعمةٍ تغسل الوجوه

حين يدفن الأحباب في وجهك ضحكتهم المتأسفة... يعني أنك صرت جديرًا بالشفقة

حين يعتذرون عن غيابهم الطويل عنك بداعي مشاغل الحياة فأنت بادٍ بالرحيل

حين يتحاشون وجهك ويرددون

والله الليلة أحسن من أمس

هم فقط يتحاشون الموت القابع بين عينيك
ولكنها القطط والأرانب هي من تذهب بي لعالمها

أعبر شوارع القرية الحزينة... أقرأ في عينيها حزنًا يثقل خطواتها وهي تعبرني إلى داخلي... كان هذا الشارع غاصًّا بالأطفال يلعبون كل لعباتهم الصيفية... يتقاذفون بالكرة ويتصايحون... ويجلسون ليحكوا مغامراتهم البريئة في سرقة جنائن المانجو والبرتقال... يحكون عن كل شيء... المدرسة والأساتذة... أيام الحصاد... ساعات المغرب على ضفة النهر... كانت ساعات المغرب عند النهر هي ما يتبارون في سرد تفاصيلها... حين يعود الرجال من حقولهم في الجزائر القريبة ويبدأون في الصياح... الترقب من أن يراهم أحد... التخفّي وهم يرصدون حبيبين يدّعيان التأمل في تيار النهر الجاري وهم يزرعون عيونهم في الحب الذي يطوف بين مكانيهما فتفضحهم أزهاره نفاذة الروائح... الآن هذا الشارع وحيدًا غارقًا في صمته اللانهائي... متثاقل الخطوة... كأن الكون رحل عن جنبتيه النائمتين في الكآبة... أقرأ بين يديها ـ القرية – وهي تكتب صفحات شوارعها نهبًا لصفير الخواء ورياح الوحدة...

هل ترحل القرية في أثوابنا ونحن نرحل عنها؟

أو تبقى في أثوابها تطالع المقابر المزروعة بالحيوات النافدة بلا ثمارٍ سوى الأسف؟

أو تصمت عنا وتمضي لتحكي حكاياتها بعيدًا عن نوافذنا الصغيرة المسكونة بصوت هواء الشتاء القارس والصيف الصعب؟

أقرأ جملًا في كتاب حسرتها... أقرأ فيها أسئلةً حائرة تتمرّغ تحت جناحها الواهن وتنام بصداعٍ خفيفٍ في رؤوس المارة...

أنا لا أسمِّي القرية

أنا بعض من أسمائها... أنا والذاكرة... وهسيس أملٍ ما... ووخز شوقٍ ما... وجراحٍ لا تنام ولكنها تغرق في تكرار المحاولات فنعتاد عليها... وعيون يغلب الأسى على ألوانها تلمح شيئًا ما في سماء خائفة

هي من تسمّي

تسمّي مزارعها الصفراء ونخيلها المكدود وحلوق آبارها الجافة بعد أن كانت تشعل الأفق بخضرتها الداكنة ومياهها المتدفقة.

تسمّي رجالها يخطون في ثيابٍ تخلو منهم يسكن بينهم القهر والخوف وكانوا لسنين خلت يغالطون الصمت بقهقهاتهم العالية وصراخهم الذي لا يهدأ.

تسمّي بيوتها الشاحبة

وشوارعها المقفرة

فيوض الحسرة...

أناشيد لا تكفُّ عن ترتيل الصمت بألحانٍ بائسة

كنت أحكي لـ«سيف»... عن خضرةٍ مستحيلة... عن نهرٍ خياليٍّ... عن جنةٍ مخبوءةٍ تحت أعين النساء وهنّ يُخطن أطراف النهار بالقهوة والونس والضحكات المسترجلة... عن رجالٍ قادمين من مدائن الما وراء يندسّون في جلابيب بالية... وهو يطالعني بابتسامته المجنونة... أنا غارقٌ في موت عمّي... كانت حياته بحرًا وجاء موته بحرًا... يجلس «سيف» بجانبي... يدسُّ يده في يدي ويتمتم... أفهم تمتمته كلها إلا تلك التي كان يفعلها أمام «عبير»... يطيّب خاطري... يشجّعني على البقاء قويًا... تسخر كلماته منه... تقهقه عاليًا لأنه ما كان كذلك حين موت شقيقه الأصغر، الذي مات وهو يلعب تحت رجليّ والدته، ويعرفني لن أكون كذلك الآن... عمّي الذي كان يصغر والدي بثلاث سنوات، كان وكأنه يصغره بجيل، كان أبي الأصغر، والوسيط المستديم بينه، كان مستشاري ومحاميَّ وصديقي، ومستمعي الأول.

قضى «سيف» معي كل أيام العزاء السبعة ومضى... ترك لي وريقات صغيرة بالغرفة... لم يخبرني بشيء ولكني كنت أعرف طريقته في الحياة، كان يقول لي:

أفضل أن تخاطب الحياة بالقلم لأن الموت لا يقرأ

الموت عدو المشافهة الأول... كانت جملته الحبيبة

ما إن ودّعته وهو يجلس في مؤخرة القارب الصغير ويضع حقيبته

على رجليه حتى عدت لاهثًا للغرفة أبحث عن مخاطبته للحياة بعيدًا عن أمّية الموت... كان ينزف نفسه في سطوره ويمضي عاريًا... يسكب أعماقه وأحزانه وآلامه في قلمه ويطير خفيفًا بأجنحةٍ من راحة... يرتاح وهو يحمّل قلمه أحمالًا مخيفة... وجدت وريقاته.

–

تاج السر...

عليك أن تتحمل

لن ينهك موت عمك عزمك، أنا أعرف جيدًا كيف كانت علاقته بك خاصة، وكيف كان صديقك، وأعلم أنه كان الخطوة الممهدة دائمًا بينك وبين عوالم أبيك الغميسة

لن ينهك الموت عزمك ولكن ليس سوى الجزء التافه المُسمَّى الذاكرة من يفعل... الموت طيِّبٌ يا صديقي ولكن الذاكرة قاتلة... الموت صادقٌ يأخذ ويذهب... والذاكرة ماكرةٌ تأخذ وتبقى... تحمّل... أنا أعرف أنك تبتسم الآن وتقول لو أنك تحمّلت موت «خالد» سأفعل أنا... أنا تحملت موته ولكني لم أتحمّل ذاكرة والدتي وهو لا يكاد يغيب عنها، هذيانها بذهابه من تحت رجليها يقتلني أكثر ألف مرةٍ من ذهابه.

حاول أن تتحمل ذاكرتك.

يا صديقي
بيني وبينك رملٌ من وعودٍ وبحارٍ من حقيقةٍ وقوارب من يأس ولكنّا سنبحر
بيني وبينك عالمٌ جديد
بيني وبينك...
أنت تعرف الذي بيني وبينك
تحمّل
أحبك بصدق وأنتظرك... عد سريعًا
«سيف»
بالمناسبة ما كانت الخضرة مستحيلة ولا النهر خياليًا
البقاء لله... والذاكرة الممضة
والله كانت الخضرة مستحيلة وكان النهر خياليًا ولكن...
كنت سأحكي لك يا «سيف»... صوت أمي ينتزعني دائمًا من عزلتي... الحاجة «فاطمة»... امرأةٌ خضراء كوعدٍ ننتظره لسنين طويلة... تخفي وراء سنين عمرها نعومة ورقّة وضكارة... بها شلوخ باهتة... تلوح بعيدًا بعيدًا كطائرٍ غريب... ضيَّع بلاده وما زال يحلم أن تصادفه في هجراته الخرافية.. لا تعرف كيف تخبئ ابتسامتها... كانت حتى وهي تضربني وأنا صغير وتقرصني في أذني بحرقةٍ وهي تبتسم... حتى كبرت على معانٍ غريبةٍ للابتسامة...

تلبس ثوبًا أبيض وتحمل سبحةً خضراء... كان صوت «سفنجتها» يقتلعني اقتلاعًا من عوالمي قبل صوتها وهي تقبل نحوي.

أنت ياولد داير تبقى راجل متين؟ الناس قاعدين في «فُراش» عمك وأنت قاعد تقرا في أوضتك؟

لا والله بس قلت يمكن «سيف» نسى ليهو حاجة هنا... لكن راجع اسع

وضعت يديها على سقف الباب، وانتظرت، حتى لملمت أوراقك كلها، يا صديقي ودسستها تحت الوسادة، وفردت يديّ أمامي، وشبكت أصابعي، وأنا أنظر إليها، بحثت عن حذائي، حاولت إطالة الوقت، علّها تتركني معك قليلًا، ولكنها بقيت ممسكةً بحلق الباب، ووحدتي... فخرجت.

- 2 -

لا شيء يفصل بين الذاكرة والموت...
لا شيء مطلقًا

السرير يدور بي في كلِّ اتجاه... حلقي يا «سيف» يتركني وحيدًا لمباضع الجرَّاحين واستحالة الغناء ويمضي... ما عدت قادرًا إلَّا على الهمس الآن... أضع أصابعي عليه وأضغطه جيدًا لأهمس «لابتسام»...

هل تفهم معنى أن يهاجر حلق الفنان ويتركه يتلصص الهمس؟

معنى أن يتحوّل لنيلٍ يابسٍ سافر ماؤه وتركه لصهد الضفاف؟

معنى أن يبكيك شعر رأسك شعرةً شعرة وهو يترجّل تحت ضغوط الكيمياء وبرودة الأطباء وهم يوسّعون أحداقهم ويتحاشون اللغات التي تفهمها؟

معنى أن ترى الحياة تتنزل قطرات ماء مالحة من عيون أمّك وهي تُغرق طرف ثوبها في الدمع والذاكرة؟

هل تعرف معنى كل هذا يا «سيف» وتذهب بعيدًا دون أن نغنيه

معًا؟

أسمع جيدًا صوت وقع حبّات الدم الباردة في جسدي المنهك... أصابعي تثير فيّ شفقةً لا نهائية... تتناثر عروقها بين شحوبي العظيم... ساعدي... أنهكته إبر الممرضات حتى بات لا يحفل بشيء... ورأسي به حفلٌ من وساوس وأنا أرى «ابتسام» تبدل عينيها بجمرتين وتقبع عند أقدامي... كانت كتابًا من ألم...

ألهذا الحدّ أنا أفعل الموت حولي؟

إذن لماذا تركتني لكلِّ هذا وحدي؟

وقفت أمام خلوة «العمدة»... يا للسنين... «علي ود عاشة»... كانوا هكذا يسمّونه... يجلس باهتًا يطالعني بنظراته الحزينة... يربط نظارته الغليظة بخيطٍ أغلظ... حركته تنبئ عن جبلٍ من عمر أوقد أوتاده في حِجْرِه ومضى... يتزحزح في جلسته وينحنح... أعرف أنه سيحكي لي وكنت أمنحه أذنيَّ طالما كانت تساهم في فك عقال جبل سنينه... حكى لي كثيرًا عن خدمته بالجيش المصري... وعن حروب الخواجات... عن زواجه... عن إجازاته حين يعود محمّلًا بالسكّر والشاي والقمصان الكاكي وقصص المصريات اللاتي تحلّقن حول فراشه بأجسادٍ فارهةٍ لم تسمع عن الختان وتركنه يعضّ أصابع عالمه كلها... كان يقول لي هامسًا:

- تعرف البنات الغُلف ديل ياهن الودرن نظرنا دا... ويضحك

ضحكاتٍ مكتومة...

يوم ولادتك يا «السر» أنا ما بنساه أبدًا...

عند التاسعة... والقرية تسافر في ملكوت الظلمة العظيم... الظلمة أعظم من النور يا ولدي لأنها لا تعرف الأنانية... تزداد عليك لتدفعك للتفكير في الضوء... ولكن الضوء لا يفعلها... يستأثر بك حتى تنسى من تركتهم خلفك في بحار العتمة...

سمعت صراخًا قادمًا من جهة منزلكم... كنت لسه شبابًا...

وضحك ضحكته الناعسة وسعل... تنحنح وهو يكفكف جلبابه ويصفق بيديه لينظفهما من بقايا البرش المتآكل...

خرجت أحمل فانوسي... وأداري عليه من بعض نسيم جاء فقط ليطفئه ويمضي...

علبة صغيرة بها الزيت المفضي إلى الخيط الذي تتراقص شعلته الباهتة... ترسم فوقها خيوط الدخان رغبةً دائمةً في السعال...

قابلت العمدة و«علي صلاح» و«الحسين» وعمّك «عابدين»... أنت ما شفت عمّك «عابدين» دا... كان راجل براهو... كان اسمو المُركب... سموهو المركب لإنو المركب هي الوحيدة في البلد دي البتشيل أي حاجة ما بتفتر أبدًا... ما كان بيقول ما بقدر أعمل كدا... أنت عارفو مات كيف؟

صمت لحظات وهو يضرب بيده اليسرى على أذنه ويطالع

الأرض

كان البحر هائجًا والقرية كلها في المركب قادمة من الجزيرة بعد نهاية يوم مرهق... كان عمّك «عابدين» مضجعًا على يده في مقدمة المركب يطالع الجميع ويحكي لهم نكاته التي لا تنتهي... النساء يهمهمن بأصواتٍ خائفة... الموج يتزايد... وفي تأرجح المركب يمنةً ويسرة... دخل الماء من منتصفه... الضجة تتزايد... النساء يتصارخن... والرجال تسكن عقولهم سكتةً مخيفة... عمّك «عابدين» يعدل من رقدته وينتبه... ياسيدي ما أطوّل عليك... مرق الحريم الفي المركب كلهن... لكن مات... الدكتور قال سكتة قلبية... القلب الوحيد الما كنا قايلنو بيسكت... سكت... مشيئة الله... مركب يسكت قلبها في النهر... مشيئة الله سبحانه... أنا كت بقول في شنو؟

تحكي عن الجماعة القابلتهم يوم ولادتي

أيواا جاؤوا كلهم يتوكؤون على فوانيسهم وأدعيتهم المهموسة وعصيهم الغليظة وجلابيبهم البالية حتي لتكاد تتلاشى...

سرت نسمةٌ حلوة في المكان فجعل «علي ود عاشة» يجيل نظره في السماء ويردد في همسٍ أقرب للشعر... يهز رأسه ويكاد يغمض عينيه...

– شفت سيرة عمّك «عابدين» جابت الهوا...

- سرنا في صمتٍ لا تسمع سوى صوت الأرجل في حجارة الطريق... «السفنجات» هذه مفضوحة دائمًا... لا تترك صوتها أبدًا وهي تصاحبنا إلى مشاويرنا كلها... وخصوصًا حين تصاحب النساء... كنّا وكأننا نتسابق نحو كنزٍ عظيم... قابلنا أباك يتلفّح شاله الأبيض ويزرع فناء منزلكم بخطىً قلقةٍ ويمسك عصاته بيده اليمنى... يطالع الأرض كأنه يتابع فيها شريطًا سينمائيًا... في يده اليسرى إبريقه وسبحته وهبابته وكل عقله...

خير إن شاء الله.

خير.

... حرّك عصاته في الأرض قليلًا ثم رفع نظره تجاهنا... خير إن شاء الله، بس المَرَة بتلد.

المرة بتلد؟ صرخ «العمدة» وهو يدلق كل هواجسه علينا لحظتها... المَرة أول مَرة تلد؟ كواريكا جايبنا من آخر البلد؟

«العمدة» لم يكن يعرف لغةً أخرى يا ولدي غير لغة الحكومة... والمجلس الذي غالبًا ما كان ينام قبل نهاية جلساته... ولغة المحاكم في المدينة.

وأنا رسلت قلت ليك تعال يا «عمدة»؟ ما تكورك المَرة أنت المزعلك شنو؟

انتبهنا لسحابةٍ غامضةٍ سارت بيننا لحظتها... تبادلنا القلق

والخوف وانتظرنا لحظاتٍ قبل أن يصيح «علي صلاح»:

يا جماعة قولو خير... أنتو ماكن عاقلين؟ واسع المَرة كيفنها؟

تنهّد أبوك وكأنه يأسف على حواره مع «العمدة» وأجاب وهو يجـــرُّ دلاءً من بئر صبره...

كويسة... رسلنا نجيب الحكيم.

الحكيم؟ «قرّب» العمدة ما بين حاجبيه كأنه يقلع صخرةً من جبل تماسكه.

أيوه... الداية ما قدرت... قالت الجنا معووج الا يجي الحكيم؟

الجنا معووج؟ وأرسل «العمدة» ضحكته الحارقة... الجنا معووج... والله كويس يا هو الفضل... الجنا الله لا عدلو... حكيم شنو البيولد المَرة؟ أنتو الحيا اتقلع من البلد واللا شنو؟

الفوانيس حينها علمت أن شيئًا ما سيحدث فتطاير ضوؤها الباهت... الصمت علّق أوراقه فوق رؤوسنا ورحل... كانت المرة الأولى التي أرى فيها عصا أبيك تفارق الأرض... أوسع فتحة عينيه من تحت نظارته... قطّب جبينه وهو يهزّ رأسه... المرة الأولى التي تفارق الأرض وتحط على غصون رأس العمدة المتفرقة اليابسة فتساقط كل أوراقها... اختلط كلُّ شيءٍ بكلِّ شيء... نسينا أمك والحكيم والداية... ما سمعنا صراخك بين صراخ «العمدة» وأبيك...

تنهّد «علي ود عاشة» ومسح وجهه بيديه وضحك... وقف وأمسك بالجدار القديم وضربه بيده والتفت ناحيتي وقال بين ابتسامته:

ومن يومها و«العمدة» كارهك أنت وأبوك. ثم صمت لبرهة حسبتها ساعة.

أها... واصل.

ضحك... أواصل شنو يا ولـدي... أنت أول طفل يولّدو الحكيم... وطهّروك كمان في ساعتك... أنت أول وَليد يُولد على وقع العصا وهي تساقط أوراق أغصان رأس «العمدة»... تاني داير شنو؟

كان «العمدة» قادمًا نحو الخلوة... تسبقه نحنحاته العريضة وأوامره الدائمة للشغّالين... تثقله أكوام الملابس التي تتقاسم كتفه... أنزلها كلها على عنقريبه الصغير قبل أن يجلس عليه... انتهى بالعرّاقي الرهيف والسروال الطويل... دفن سفّته الكبيرة تحته بمركوبه المتهالك وعدّل وضع الوسادة وتململ قليلًا قبل أن يتوصل إلى جلسته المثالية... دجاجاته تعفِّر تحت رجليه وصوتها يطلي الجدران بشيء من الألفة الغريبة... تطبع جلسته برائحةٍ أدمنها المكان... يصيح...

– يا ولد تعالَ سِدْ الجداد دا... الله لا كسب الجداد ولا كسبكم...

وحين يأتي لمكانه يومًا ما دون أن يطالع الدجاج يعفّر تحت «عنقريبه» الصغير يصيح:

- يا ولد أنت الليلة الجداد وينو المحل دا صانّي كدا؟

في طرف الخلوة براميل متناثرة يقف جزء منها ويرقد الآخر كيفما تسمح له حجارة الأرض البارزة تمتلئ بالجازولين... تدفّق جزء منها وترك أثره على أطراف البروش وبعض خراطيم صغيرة وبعض قفاف وآثار قمح على الأرض تزرعها بحقولٍ من الطيور الصغيرة وأسراب الحمام والقماري... «تُرمسة» شاي صغيرة تطالع بحذر يدي «العمدة»... كان يفتحها بعنف ويغلقها بعنفٍ أكبر، وكثيرًا ما كان يغالط فمها بالغطاء مائلًا عن وضعه فتصرُّ صريرًا ثقيلًا ينتهي بها غالبًا للكسر

- ياجَنى... تعالَ شيل الخرابة دي... اتحلجت... بالله الحاجة بقيت بس تلمسا تتخرب

- أنت يا«عمدة» بدل كلو يوم كاسر ليك «تُرمسة» ما تخليهم يجيبو ليك الشاي بالبرّاد

- لع «الترمسة» قعد تصلح طعم الشاي... أنت شن عرفك بالشاي كمان... اسكت اشرب وأمسك خشمك دا عليك.

دربٌ تعلوه الحجارة يتلوى أمام «الخلوة»... يقع بين صفوف البيوت الطينية وصفوف النخل... عند نهاية صفوف النخل حفرة

كبيرة يستخدمها الناس للبناء... يحملون ترابها للمنازل... أخيرًا أصبحوا يصنعون الطوب الأخضر... علاقتهم بالخضرة غريبة...

الطوب أخضر.

والنخل أخضر رغم الصفرة التي بدلت جلده لسنين طويلة ماضية

والشخص ضارب السمرة أخضر.

والسفنجة نيلية اللون أيضًا خضراء.

استغرقتهم الخضرة حتى طالت بقية الألوان...

جلس «العمدة» في عنقريبه وكأنه استعد لحفلٍ غريب سيبدأ الآن... أخرج رجليه من مركوبه المتهالك ووضعهما عليه وزرع وجهه بابتسامة فاترة ستثمر فقط قليلًا من طرحِ جبينه المقطّب دومًا... حفرت السنون ما شاءت من تقاطيع على وجهه... ودفنت ما شاءت...

«علي ود عاشة» غمز بعينه وهمس.

- ساكت ما اتذكرنا لينا خزنة...

- 3 -

كتب لي»سيف»...

«العمدة» أميز رجال قريتكم. كلهم ساهلون وبسطاء. طيِّبون. يبنون جدرًا من لامبالاة مكترثة بين عيونهم الصغيرة. وهو يزرع بين حاجبيه حقلًا من زرعٍ بلا ثمار. ويهشُّ عنه طيور الوقت بأوامره الدائمة ونحنحته التي تسبق وصوله. وتحصده العيون ذاكرةً تنبش أراضيهم المنزوعة وهم يطالعونها تزهر بين أقدام شغاليه.

هل تحقد عليه؟

إنه مسكين يا «تاج السر». كنورسٍ هرب البحر من تحته وبقي كسيرًا يبحث عن سمكةٍ خرافيةٍ تحت أمواج الرمل والوهم. أميز ما في قريتكم أن رجالكم ينسون ويعيشون معه في عمرٍ واحد. وقدرٍ واحد. ويدٍ واحدة. تمنحه أكثر منهم القمح. وتمنحهم أكثر منه السترة. لماذا لم تحكِ لي عنه يا «تاج السر»؟

يا»سيف» «العمدة» ليس أميز رجالنا. لا تحرق صورهم التي تصنع عطرها من العرق المطبوع على أطراف قمصانهم وجلابيبهم

طوال اليوم. أنا لا أحقد عليه وأنا الذي ساقطت بولادتي أوراق غصون رأسه.

أنا لا أحقد على أحد يا «سيف».

ولكننا محتاجون أن نزرع حقلنا ببذرة جديدة غير هذه الـ«عفا الله عما سلف»... بذرة الحق أينما كان وكيفما...

دون ذلك لن نحصد وطنًا ولا كرامة...

دون ذلك سنظلّ ندفن بذورنا على رمال الخوف التي لا تنبت غير الموت والشكّ... الرجال يزرعون أراضيهم وينزفون دمعهم ودمهم وعرقهم ولياليهم بطولها المخيف ونهاراتهم بشمسها الحارقة ويعودون بالقموح للعمدة...

ينزلون آهاتهم وغصاتهم وجهدهم الضائع في مخازنهم المسكينة...

الرجال يتحايلون على جراحهم ليضمّدوا مخازن «العمدة»...

الرجال يقفون على أعصابهم لينام بال «العمدة»...

عن أي حقدٍ تتكلم يا «سيف»؟

أنا حرثت كل هذه العيون بمطالعاتي فنبتت الطيبة وحدها... الطيبة وحدها يا «سيف»...

والطيبة أقصر الأيـادي... الطيبة وحدها من يشعل كل هذه الجراح...

آه يا «سيف»...

أعرف أن «العمدة» ذاته طيّب... يدفن نفسه في كبرياء فاسدة فتفوح روائحه...

إنها ليست مشيئة الله على حال...

إنها مشيئة الأيام الماضية...

دعنا نبحث عن مشيئة الأيام القادمة»

–

يا «عمدة»

أهلًا... قالها وهو يبحث عن كل ابتساماته السابقة ليزيّن وجهه لي

يا ولد «الحسين» كيفنك؟ أدخل لا جوه دا منو المعاك دا؟ «ود عاشة»؟ أنت يا «ود عاشة» كمان داير يعزموك؟ أنت ناس البابور ديل خبرن شنو؟

والله قالو جابو الاسبيرات ودايرين يجمعوا القروش.

والله ناسكن ديل جِنّهُن قـروش.... يمرّر أصبعه على الرمل المفروش تحت «عنقريبه».

علْ ماهِن كُتار؟

ما في شيْ كتير عليك يا «عمدة».

ضغط على كلماته هذه وهو يخفي ضحكة صارخة... فتطلّع «العمدة» في السقف فوقه وصمت.

كانت «القلعة» التي تقع خلف منزله قلعةً تاريخيةً، هكذا حكوا لنا عنها، بناء ضخمًا، جداره الحجري الصلد يحكي عنه، يقع الجدار على عرض مترين وتوجد به فتحات صغيرة متناثرة بطول أمتاره الخمسمائة وعرضه الذي يكاد يتخطى الثلاثمائة، به فتحات للمراقبة، تسنده من جانبه الشرقي جبال صغيرة ولكنها متقاربة متماسكة تبدو وكأنها جزء من البناء، ليس عاليًا تمامًا جرّاء الهدم الذي طال أطرافه، وتناثرت الحجارة من قمّته حتى كادت تدفن باحتها الداخلية، ولكنّه ظلّ يحتفظ بهيبته لأنه ما زال أعلى من الجبل خلفه، كنا نجهد في صعود جدره الضخمة، وعندما تقف على أعلى قمته تتراءى لك الأرض بعيدةً، بعيدةً جدًا، وكأن قمّته على تهدُّم أطرافها تحكي سفرًا خفيًا عن القرية، وعن سفوح ذاكرة رجالها، حجارتها المتناثرة تنام على ذاكرةٍ عصية، وذكريات عميقة، تلوح في الهيبة التي تجلّلها حين يحطّ على كتفها صقرٌ تائهٌ أو تترنّح حمامةٌ عند منتصف جدارها وتعود لبرجها الواطئ، حين يتسابق الصبية في قذفها بالحجارة ليوصلوها للقمة المستحيلة.

يقولون إن «عابدين» فقط من وصل حَجره للقمّة ولكنّه ظلّ يشكو من يده لأسبوع، وما عاد قادرٌ على ذلك... يقولون إن «معركة كورتي» كانت تحتها مباشرة... ويقولون إنها كانت مقابلها على الضفة

الأخرى، العظام المتفرقة، منحورةٌ بالصدي والرياح والزمن، تصادفك جمجمةٌ، هي قطعًا لجدٍ ضيّعته الحرب وأفقدته عمرًا كان سينزفه لزرع نخلةٍ أو شقِّ ترعةٍ، أو حصاد قمحٍ، ما كان يتحوّل حينها لمخازن «العُمد»... لم تبقَ من ملامحها سوى حفرتين مكان العيون وأسنانٍ ناصعة الضياع وحقْوٍ بالغ التماسك لذاكرةٍ تضرب بأطنابها في حقول القلعة فينبت التاريخ.

التاريخ ينبت على أعصاب صانعيه، لا تصنعه الكتب الزائفة ولكن تحفظه الجماجم المكتوبة بالنزيف والجراح والموت، تحفظه مطالعات الصبية المستمرة وإجابات الكبار عن سرِّ وجود القلعة في قريةٍ تغرق اليوم في الصبر الفاسد، كل أدوات الحرب عندهم اليوم هي الصبر الفاسد، فقط يحلمون بصرامةٍ في وجوههم وحلاوةٍ في ألسنتهم وصفاء في قلوبهم يورث أعمارهم أسباب أن يبقوا مثل القلعة باهظي العلو تتهدم أطرافهم للداخل حتى لتكاد تدفن باحة إنسانهم، مثل جماجم الآباء والجدود ناصعة الضياع، مثل النهر الخيالي الذي يجري لا يحفل بتوقف الحياة يومًا عن سواقيهم الفقيرة، مثل النخل يقتطع من خضرته لتبقى الثمار نضرة حتى تفك أسر الدَيْن والملاحقات الكافرة، الصبر يوقد شمعة العمر، ويطفئ أقدارًا لا تحتملها الجبال ذاتها، ولكنه ليس على كل حالٍ مثل هذا الصبر الفاسد.

اقعد مالك واقف؟

.....

كان العمدة «الحسن ود طه» باسقًا رغم سنين عمره السبعون، تتدفق عيناه بنصاعة الأرض وطيبها، لم أحس بأنه يكرهني كما أخبرني «علي ود عاشة» ولكنّه كان يكابر في حضرة الرجال تجاه عصا والدي التي حلقت كبرياءه يوم مولدي... طالما شربت معه الشاي وحكيت له عن دراستي وعن أحوال المدينة وكثيرًا ما حكى لي:

تعرف يا «السر» يا ولدي...

أحسه يفتقد شيئًا ما في عالمه هذا... تجهله حجارة الطريق المتناثرة وأسقف الخلوة التي تضع حملها على عود السنط القائم في منتصفها وتنام، وتجهله خطوات النساء الصامتة وهي تخطو صوب «فُراش» بكاء ما، تسرع وكأنها تريد اللحاق بالموت ذاته، وخطواتهن الصاخبة نحو عرسٍ ما، تكاد تطير للتحليق مع فرح يأتى نادرًا.

ينظر صوب صفوف النخل التي تحركها نسمة سارحة فتحدث ونسًا رفيقًا بينها.

ينهق حمارٌ فجأة، كأنه يعلن عن وجوده الصفيق ضمن لوحة الحياة الأنيقة.

بيده مسبحةٌ تجهل المعادلة التي ينتهجها في التسبيح، ولكنها تتساقط على كل حال في صمت يغالط ضجيج المكان الغارق بينهم في اللاشيء.

تعرف يا «تاج السر» يا ولدي... أهلك ديل عُمرن ما يتطوروا... ساعة سافرنا أنا وشيخ «علي وداعة الله» نجيب تصديق بابور الموية حلفوا ما يشربوا منها قالوا موية البابور تكتلن.

وأشار للصهريج المقابل للخلوة وصفوف النساء يحملن منه الماء على رؤوسهن...

اسع كتلن العطش، أظنو عمك «حمد الفقير» قالهن في الخلوة إنو موية البابور حرام، عشان ساوِّنو الإنجليز، نان هو المسخوت «المكنة» القاعد فيها اليوم كلو يخيّت في الجلاليب دي سواها «عثمان بن عفان»؟

غرق في ضحكته الساخرة... وانتظر قليلًا قبل أن يضيف

السكر وحب الشاي الخرابة ديل الساوَّهن منو؟

اسع يفتشوا في الاشتراك ما هن لاقنوا.

يضع «إبريقه» تحت «الماسورة» الضخمة في ركن الخلوة، يرفع أكمام جلبابه وهو يضحك:

الاستعمار خربن ومشي وتاني عُمرُن ما يتصلحوا.

ماهو الاستعمار يا «عمدة»... قال «علي ودعاشة» كمن يلقي خطبة في «جامع وسط» حيث اعتاد أن ينتقد طريقة الإمام فيه وهو يحاكيه بالقرب من دكان «سالم» الذي يجتمع فيه الرجال بالأمسيات.

القلعة الوراك دي يا «عمدة»... قالها وهو يشير بيده المعروقة صوب «القلعة، لو كلو يوم مشوا وقفوا تحتا، كان عرفوا إنو أهم حاجة عملها

الاستعمار علّمُن كيفن يتحصّنوا منّو، بس هُن ما اتعلموا، هن خربتن «الخلوة» دي شفتها، وضرب بيده على جدار الخلوة، مسكوا في دا حرام ودا حلال، لامن ضيعوا الدنيا والآخرة، قالوا الإنجليز كُفّار وما بعرفو شنو، اسع حياتن دي ياها الحلال؟ الإنجليز ديل ياخي...

تنهيدة طويلة يضرب بعدها كفًّا بكف ويواصل بانفعالٍ بالغ.

الإنجليز واللا الحكومة دي؟ ترا من يوم الجات ساكنة في الجامع... نحن استفدنا شنو؟ بلا خليناهو ليهم ومرقنا!!! كرهونا في شويتين الصلاة الكنا بنصليها... ياخي عليك الله خلينا.

أنت تمشي وتجي للحكومة يا «ود عاشة» لامن يلمّوا فيك الشقايا ديل يكتلوك على بطانك... اسع الحكومة دي الجاب سيرتا منو؟

ضحكت طويلًا وأنا أرى «علي ود عاشة» يستنجد بي بنظراتٍ واسعة، كان يجرّني لنقاشٍ أعرف آخره... تدفقت مياه «الماسورة» الضخمة بعيدًا بعد أن امتلأ «إبريق» «العمدة»... تطاير الماء على ملابسنا قبل أن يغلق «العمدة» «الماسورة» وهو يواصل سلسلة سخطه علي كل شيء.

البرش المتآكل تحتي ينام تحت رحمة الليل والنهار، الشتاء والصيف... ينام تحت رحمة موضوع النقاش الذي يتحكم في حالة الحضور، كان «العمدة» يجلس على وسادة توضع له على «عنقريبه» الصغير، كان البقية يجلسون على «البرش»، ينتفونه بأيديهم وهم

يتحدثون، يشهد ويوقِّع على محاضر جلساتهم من دمه ووجوده، يفكّرون، ينمّون في المارة، يتحدثون في كل شيء، السياسة، الاقتصاد، مباريات فريق القرية مع القرى المجاورة، نساء العرب الرحل الباحثات عن الكلأ لقطيع البهائم وبعض الزاد لقطيع الصبية الناضح بأمراض الكون كلها، الباحثات عن الحياة ولو بالموت.

العرب الجو جداد ديل طيبين خلاص.

الماهو طيب منو؟ كلنا طيّبين ودا المغتس حجر أهلنا، بلا الطيبة دي شيء ضيعّنا ما في.

يغرق المكان في ضحكاتٍ آسفة.

ـ

رجعت للمنزل، أوراقي في منتصف السرير، قصاصات كتاباتي كلها، مسودات قصائد «سيف»، رسائل «ابتسام»، أوراق امتحانات الجامعة، المناشير، لفتت نظري مسودة خطابٍ كنت كتبته لـ«سيف».

«سيف..

هل لابد للإسلام من حفل الكرامات هذا حتى يصل؟

أعرف أني أبدأ رسالتي بسؤال نعرف إجابته جيدًا، ولكنّي أرى كل يوم عقدة جديدة في منشار الحياة، أرى كل يوم عمرًا جديدًا يتنزف

رأسه بين أيدي الجنوب المسكين، رسموا الشهادة في أسفل خريطة الوطن، نشروها على روافد النيل الجنوبية حتى «قناة جونقلي»، الطريق للجنة يبدأ بربط العصابة الحمراء، هكذا ببساطة تبدأ إجراءات شراء تذاكر الدخول للجنّة من الشمال ليتم الاستلام في الأحراش، جاء أخي الصغير يحكي ما شاهده في عرض الفيديو المجّاني الذي يطوّف على القرى، أسهب في الحديث عن صور الشهداء وحكاياتهم وخوارقهم حتى أشفقت عليه، قال وهو يكاد يموت من الوجد:

شاهدنا الشهيد وهو يقرأ القرآن مع المجاهدين قبل دفنه.

تنفّست بعمق وانتبهتُ على تمتمة أمي وهي تحرّك حبّات مسبحتها الخضراء بيدها.

أمان الله دفنوه حيًا.

قالتها وهي تتابع تسبيحها، أمي يا «سيف»، مَن تبكي وهي تقرأ صغار السور التي تحفظها بركاكتها الفصيحة تلك قبل أن تنام وتهذي بكلمات لا نفهمها، تعرف إن كان قد قرأ معهم فقد دفنوه حيًّا، وأخي يتوق لرائحة المسك التي تزكم أنوفهم، رغم شاشة التلفاز، آهٍ يا «سيف»، أعرف أن جيب الساحر سيفرغ من حيله، وأن يده ستخرج مشلولة... ولكن...

دعنا من هذا...

كيف «ابتسام»؟

طفلتي المجنونة... التي أودعتها قلبي ومضت لتزرعه بأشواقها.

أي سمادٍ أغرق هذا القلب... الأشواق تزهر فيه طوال مواسم الدمع... والدمع لا يتوقف.

هل نحن ضعفاء لأننا نحب أو أقوياء لأننا نحتمله؟ هل حكيت لك؟

قبل مجيئي بأيام ذهبنا للبحر، «ابتسام» تحبُّ البحر وتخافه... الحبّ يا صديقي هو الذي يحيطك بهالة الخوف هذه من المحبوب حتى تظل ممسكًا بقوةٍ بشعيرات وأنفاس محبوبك، حينها تسقف الحقيقة تعريشة الحلم ويطول الظل شمس عينيك فلاتعود تصرّهما في وجه الحياة، سحبتها من يدها ونزلت للماء، لم تخَفْ وتعاند مثلما كانت تفعل دائمًا، كان هناك طائر أبيض يحاول أن يبدو منشغلًا بسمكةٍ ما ولكنه كان يراقبنا، عرفته بخبث الرواة حين ينوون رصد المخيلة الجانحة، اعتقدته ضيع حبيبته ذات موسمٍ غابر، وقرأ ماضيه في حاضرنا الطفل، يرفرف فوقنا بأجنحته البيضاء، يباركنا بوقوقةٍ حالمة، ويغوص في الماء، يخرج أكثر بياضًا ويعود للوقوقة، شَعر «ابتسام» المبتل والملتصق بجبينها بدأ لي كخيوط حلم أوقعت صحوها في الشرك، تمنيتُ لو أن لساني يلامس جبينها فارتعشت، التمنّي يصيبني بالارتعاش هذه الأيام، لماذا تبدو هذه البنت بكل هذا السحر؟ لماذا يبدو الشعر المبتل بكل هذه الفتنة؟ مسحتُ جبينها بيديّ فأحسست كأن الماء تحتي لهب ورمل،

أصابعي تغوص في رمل حلمها وتحترق بلهب جرأتها وهي تطارد الطائر بعينيها، غافلتني وجرّت يدها وأسرعت نحو الطائر، كأنها طفلةٌ تلاحق فراشةٍ تائهة، مضت نحو عالم الطائر الأبيض المغسول بضياء غامض، تضرب بيديها على سطح الماء فيتطاير الرذاذ يراشق أجنحة الطائر الذي كان وكأنه يُسمّع أغنيات الخلود متأنقًا في بياضه الخيالي، واثقًا من عودة حبيبته في موسم ما، غاصت «ابتسام» في حفرةٍ عميقة... انتبهتُ على حِدّة صرختها، كان الفرح الطفولي الذي يشّعُ من عينيها، بدا وكأنه مهرجان لهفةٍ وشوق، غاصت، ثم بدأت تطفو وهي تشهق وتضرب بيديها على وجه الماء وترسل نظراتها للمستحيل، الطائر أصدر صوتًا غريبًا وبدأ يرفرف بعصبية، بدت عيناها كبؤرة حبّ اختصرت العالم في عينيّ، صرختْ ثم غاصتْ، وأنا مشدوه أتوزّع بينها وبين رغبتي المُلِحّة في البكاء، أودعتُ رِجْلي كلَّ معنى عرفته وكلَّ قوةٍ سمعتُ بها وقفزتُ نحوها، أمسكتُ بشعرها المتناثر، كانت أخفَّ من فراشةٍ تهامس الطلَّ على وردةٍ ناعسة، طَفَتْ، سحبتُها، أغمضتْ عينيها وبدأت كأنها تغفو بين يديَّ، لامست رجليها القاع، فتحتْ عينيها إلى أقصي مدى، وقفت على رجليها وهي ترتعش وبكت على صدري، اختلط صدري بوجهها وشعرها المبتل وقلبي المأخوذ، الطير يرفرفُ ويوقوقُ بصوتٍ غريب، «ابتسام» تحولت لوردةٍ حمراء يانعة التصقت فوق أسوار حديقةٍ مستحيلة،

ظلّت تبكي على صدري، عيناها مملوءتان بحمرةٍ مجروحة وماء وحبّ ودهشة، هذا الخليط الذي يملؤني، رغبتها في الحبّ فاقت رغبتها في الحياة فنَجتْ من الموت.

الرغبة في الحياة لا تعفي من الموت ولكن الرغبة في الحبّ تفعل، وثقتها في العشق أفسدت للموت مشروعه الجبان فعاد سرابًا يطالعه الطائر وينقّره بوقوقاته الغريبة، أول مرة أتحسس رموشها بنظرتي وأول مرّةٍ أشرب هفيف نهنهاتها بصمتي، عندما عدنا للشاطئ حكت لي عن لحظة الغوص الأولى، رأتِ الموت، يعرف متى يظهر هذا الجبان رغم قوته القاتلة، رأت الطائر الأبيض ينقّره على رأسه حتى اختفى، رأت يديّ تمسكان بشعرها برفق وتجرّانها لضفاف الوجود بعد أن سبحت في عباب الضياع، رأتها بعيون حبها حين كنت مشدوهًا أتوزع بينها وبين رغبتي الملّحة في البكاء، تورمت شفتاها قليلًا، قليلًا، حتى إنني تمنّيتها تغرق كل صباحٍ قبل مقابلتي، هذه الشفاه يفعل بها الغرق الأفاعيل، وأنا كذلك، ساخرةٌ هذه المقاربة ولكنها حاضرة على كل حال، حكت لي أن خالتها قالت لها بعد ذلك إن الغرق يعني الذوبان، وأننا لن نفترق!!! ولكن رجفةً سارقتني حينها شككتني، وشكّت قلبي، من أين يعلم القلب؟ من أين يجلب الداخل أحاسيسه القاتلة هذه؟ من أين؟ واستجبت وها أنا أرتعش!!!

يا «سيف»!!

لتشهد ديمومة حبك أغرق في عيون حبيبك...

وتعلّق بشَعْره المبتل المتناثر فوقك وفوق خرائط اللهفة كلها وتسلّق لبلابة شوقك صوب مدنه لا نهائية الصمت والصخب، لم يزدني كلام خالتها يقينًا بحبنا ولكن علمتني جرأتها كيف أن العبادة معنىً فارغ إن خلا من سرٍّ عميقٍ يزرع الطريق بين العابد والمعبود! يزرع الطريق بين النفْس والنفَس، بين العين والدمع الساجد في محاريبها يسقي شتول حبّه بولهٍ فيّاض!!!

حتى تشرق في كون نفسك أخلص الحب وغنِّ ...

غنِّ لذاتك أغنيات الطائر الأبيض ووقوقاته الغامضة...

غنِّ للرذاذ يسكن عيني حبيبتك ويصبغها بحمرةٍ مجروحة... وانتبه للسماء حينها ستراها مشروخة بابتسامة عميقة!!!!

هذا هو سر الخلود! صدقني!

هل سرحت؟

إذن..

أمي يا صديقي تبحث في حقيبة «أبي» عن حزام جلدي عريض كان قد حج به «جدي» حين سافر للحجاز قبل عشرين عامًا مضت، منذ عشرين عامًا والحزام رهين حقيبة «أبي» الصارمة، لماذا تطالعنا حقائب الآباء دائمًا بهذه الصرامة؟ تبحث عنه هذه الأيام بحجة أنها تحلم به منذ أسبوع. هذه المرأة خلاصة كونٍ من صدقٍ وعفوية، تتمتم بهمسٍ

لا أفهمه ولكني أحسّه، على كل حالٍ ليس غامضًا كالذي نمارسه مع حبيباتنا، أخرجته الآن، تتجه نحوي، كيف لي أن أفضح رغبتها في محادثتي عن الزواج، هاها، ألم أقل لك هاهي تمسك بيديّ وتوقفني عن الكتابة، تطلب مني أن أتزوج، كنت أعرف أنها ستفاتحني في هذا الأمر، ولكني أجهل ربطه بحزامٍ حجّ به جدّي، وما يزال يرقد تحت صرامة حقيبة «أبي».

لكن يا حاجة أسع دي ساعة عرس؟

ساعتو متين؟

قالتها بأسٍ وهي تدحرج أشياء من عيونها غير دموعها، تبدو أحجارًا من رجاءات تبدأ بواحدة ولكنها تسوق في طريقها الآلاف صوب سفح عزيمتي، وتبالغ في شوقها ليوم عرسي.

مضت، «ابتسام» تحلّق الآن أمامي.

كيف تبدو أنت مع واقعك الجديد؟ أكتب لي حين تحسّ بحاجتك للكتابة لأني لا أفتقد كتابة الواجب الثقيلة... تفهمني؟

أرجوك لا تفعلها وتغيب.

أرجوك.

أرجوك.

- 4 -

مذكرة (1)

الأربعاء 1990/ 00/ 00

دخلت منزل خالتي حوالي الحادية عشرة ليل ...

إدارة الكهرباء تغدق علينا بفكرة لا نهائية من تأمل السماء المشتولة بالنجوم...

لكن فقط البعوض يفسد الروعة...

صوت الراديوهات يأتي من كل فجاج عميق، ومن كل فجاج أكثر عمقًا.

الجامعة بدت لي غريبةً اليوم لماذا يدخل هؤلاء العساكر لحرم الجامعة؟ لماذا تبدو هذه البنات مثل ديناصورات لفظها التاريخ من غير أن يسمح لها بجرِّ ذيولها؟ جاءت دونما ذيول ولكنها لم تنس أن تصطحب معها كل قماءة العصور السحيقة، يلبسن على رؤوسهن أقمشة كاكية ويهتفن هتافًا غريبًا، وينظرن لي أنا بالذات، لماذا تتحرش بي هذه الديناصورات؟

أعرف أن غدًا انتخابات الكلية، وأعرف أن مجيئي اليوم فيه مغامرة كبرى لأن صبيان الحكومة يمارسون مهنتهم الأثيرة، في إرشاد «كلاب الأمن» علينا حتى تتخطفنا واحدًا واحدًا، ولكنّي فقط واعدت «عبير»، لم تأتِ، أخبرتني صديقتها «منى» أنها اتصلت عليها تلفونيًا وأخبرتها أن اليوم «سيف» لن يستطيع المجيء لظروف الانتخابات لذا فهي لن تحضر، لا بأس، خفت أن تحضر وتستفزها هذه الديناصورات.

إذن علىَّ الخروج الآن!

انتبهت فجأة إلى أن حوض الزهور الصغير الذي سعيت لتأسيسه في المنزل رغمًا عن نظرات أمي القلقة، لم أسقها منذ يومين، وربّما لأيامٍ أخرى قادمة، ستحتمل، ستحتمل.

هي المويّة وينا كمان لامن زرعت ليك زهور؟ بالله زهور لي شنو؟ والله راقد وترفّس في السما غايتو

تداهمني ضحكاتٌ مكتومةٌ كلما تلبّست أمي هذه الروح.

دخلت الكافيتريا كمن يريد أن يطلب شيئًا، منتصب الثقة رغم جيوبي الخالية، وقد فهمني «عبد الكريم» صبي الكافيتريا صديقي الحميم، مباشرةً، ودونما كلمةٍ واحدةٍ وأخذني للداخل وهو يقول:

تعال شوف الشاي دا كدا تمام واللا اتقلو شوية يا دكتور؟

وأخرجني من النافذة ومضى ليلحق بأغنيته التي كان يدندن بها.

علمت بعد ثلاثة أيام أنهم أخذوه، ما عدت أراه في الجامعة خلال السنوات اللاحقة ولم يجبني أحد زملائه بأي إجابة مفيدة.

والله أظنو رجع البلد...

قالو ود خالتو رسل ليهو عقد من السعودية.

دا مجنون تلقى قعد في البيت.

ياخي في زول عاقل بيسأل من «عبد الكريم» كمان؟.

ويمضون لحال هروبهم العظيم.

مذكرة رقم (2)

السبت 1990/ 00/ 00

ما كنت محتاجًا لذكاء يغيّر طريقي من منزلنا العتيق وغرفتي الحبيبة ذات الشبابيك الخضر القديمة التي تفتح في الشارع الرئيسي، كانت تتألف من قطعٍ خشبيةٍ متراصةٍ بالتوازي فوق بعضها تسمح لك بالنظر للخارج ولا تسمح للمارة بالنظر داخلًا، تشبه نوافذ القطارات... كان أحد أصدقائي يسمّيها..«تالتة ممتازة».. غيّرت طريقي لمنزل خالتي بأم درمان، الثورة، لا أدري كيف يسمونها الثورة ويقذفون بها في الطرف البعيد، كيف لثورةٍ أن تغالب كل هذا البعد؟ أضحك وأنا أسمع إجابة خالتي على سؤالي هذا، لأنها تعتبر الثورة هي قلب أم درمان النابض، أي قلبٍ يأخذ مكان الأصابع؟ هاهاها حاولت الوصول إليهم متأخرًا... زوج خالتي ينام مبكرًا

ويخرج مبكرًا وأفضل لي أن لا يراني، لأنه كثير الأسئلة ملحاحٌ بطريقةٍ تجعلني أفضل نظرات ديناصورات الجامعة ذات الذيول المنتوفة تلك، خالتي لم تنزعج كثيرًا ولكنها كانت تحسّ بقلق أمي، طمأنتها بأني أرسلت صديقًا يخبرها بمبيتي معها.

يا ولد مالك ومال المشاكل... ما تقرا قرايتك لامن تتخرّج.

.....

خالتي من فصيل أمي... تنزف عطفها كله رغمًا عن صرامتها البادية... تتمتم وهي تدخل وتخرج لكنها تسكب كل ملامح حنانها في وجهها وهي تعدُّ لي العشاء.

اسي يلقوك ما اتغديت.

لك أن تتخيل إن قلت لها إني لم أفطر، تذكرت يوم أن قلت لأمي وهي تعدُّ لي عشاء من بقايا ما تبقى بالمنزل، قطع خبزٍ يابسات، وبقايا زبادي بدأ في التخثر، القليل من ماء الفول والكثير من البهارات، والنار والشطة يزيّفان الواقع باحترافية.

يا سلام يا حاجة ياخي، الواحد يحتفل بأول لقمة من الصباح.

اخترقتني بنظرةٍ صامتة، وخرجتْ، لم تفتح فمها بكلمة، لم أعبأ كثيرًا، تطاردني جيوش من التعب والجوع والأفكار المتلاحقة، والنار والشطة يفتحان أمامي طريقًا لا نهائية المتعة الآن، يا لهذه البلاد، كلما دهستها الظروف، واستبدت بخيراتها مافيا الدين، كلما أنجزت لنا

مشروعًا من النار وماء الجبنة والشطة، أمر مضحك جدًا أن تتحول السخرية لوجبة!!

آها يا حاجة بعد دا كباية شاي ظاابطة كدا والواحد يحس إنو «العمدة»، وأردفتها بضحكةٍ مجلجلة، ولكنها لم تجبني، فقط أزاحت ثوبها عن وجهها فبدت لي عيناها كجمرتين عظيمتين.

وتضحك؟ أنت يا ولد داير تكتلني؟ من الصباح ما أكلت؟

ظلّت تبكي بكاء مرّا، لم ينفع معها أي شيء، لم أستطع إسكاتها إلا بوعدٍ كاذب بعدم تكرار ذلك، وتدحرجت ابتسامتها غصبًا عنها إلى وجنتيها وهي تمسح بقايا دمعها، وبدا جيدها من تحت الثوب يحكي حكايات جمالٍ فارهةٍ مضت، ولكن ما زالت آثارها وكأنها أول نخلة تطالعك في الطريق الخلوية نحو الشمالية، أول نخلة تمتصّ منك الغبار والحرّ ووعثاء السفر، وتفاتح قلبك بسيرةٍ من مطر الشوق والرغبات المحمومة، كان جيدها تاريخًا موثقًا لماضي البلاد الجميلة، وحكايات الأغنيات المهاجرة صوب المنابع، حين كانت البيوت تفتح على صدق الهواء والهوى، وكانت الشوارع توصل بلا كدٍ الرسائل والقوافل ووسيم المشاوير، وكانت السماء زرقاء فاتنة لم تبهت بعد بالأكاذيب والسرقات وتغيير مواقيت الإنسانية كلها، وكانت الأرض تعدُّ فتوحاتها كلها في وجه الناس والحياة، قبل معارك الدبّابين الكاذبة، بسيطةً تقتات على خشاشها وولائم

المحبّات المبذولة، وكان الناس يمشون في مناكبها أحرارًا مرفوعي الرؤوس، لا توقفهم حاجة، ولاتغذُّ سيرهم رغبة، يأخذون منها بلا أثر ويعطونها بلا حساب، وكلما تصالحتْ معهم أصلحوها، وكلما قستْ عليها ظلّوا يضربون في بواطنها بالمعاول والرجاءات حتى تسفر الخضرة والمحاصيل والأغنيات، كلما اهتاج نيلها وطمر ذاكرتهم، كلما أنبتوا شتلًا باهرًا لغدهم، وأودعوا أسرارهم هكتارات الأراضي المروية فشاعت في البلاد رخاءً واسعًا ومستقبلًا وسيمًا، كانت مآذن مساجدهم ليست بذلك الطول فوق مبانيهم، ولكنها كانت عينهم للسماء وعصاتهم للأرض، قبل أن تتبدل الآن علوًّا شاهقًا في البنيان وسُموًّا بائنًا في الألوان والزجاج المصقول، ولكنها لم تعد لهم عين ولا عصاة، بهتَ لونها ولم تعد تُرى برغم ارتفاعها الحالي، لأنها كان تستمد طولها من معانيها لا من طوبها وأسمنت المضاربات الفاسد، وكانت تستمد هيبتها من عِزِّ الدين والناس لا من بؤس السارقين الجدد، وعباءاتهم سيئة الرائحة واللون، كاذبة الطعم.

ضحكنا ــ خالتي وأنا - على مظهري والذي يعود لعمّال الموانئ لا لطالبٍ جامعيّ عائد للتوِّ من محاضراته، والحق إنه لم يكن لطالبٍ جامعي عائد من محاضراته، وإنما لمتدربٍ جديد ضد ألعاب النظام بالجامعة والبلاد كلها، متدربٍ جديد ضد الظلم ومحاولات اختطاف

البلاد، كانت لمتدربٍ على كيفية إتقان قول «حي على الوطن» بعد أن مضى النظام يقول: «حي على الدمار» بعد كل اغتيالٍ لشخص أو تاريخ أو ذكرى، وبعد كل تدمير لقيمةٍ أو مشروعٍ أو أثر، متدربٍ كلما ارتفع صوته بـ«حي على الوطن» تقربت عصابة النظام بدمه لله، وكأن الله دراكولا.

ضحكنا ــ خالتي وأنا ــ بأصوات هامسة مخافة أن يصحو زوجها، وزوجها رجلٌ طيّب مسامحٌ بسيط، ولكنه يخاف من كلِّ شيء، ولكل شيء، حتى إنه يبدو مرتجفًا وأنت تفتح الصحيفة أمامه، خوفًا من نقاشٍ متوقع، خشية أن يضطرّ أمامك للبوح برأيه الخاص الذي قد يجرّ عليه مشاكل متوقعة، أو أن يضطرّ لمجاراتِ رأي الحكومة وهو يرى طيور احتقارك تحوم حوله، دون أن تنطق حرفًا واحدًا.

وتآنسنا ــ خالتي وأنا ــ بسيرة الأسرة والجيران، وكلمتني عن ناس الحي الذين مشت حيواتهم كما تمشي الحيوات غالبًا، مرة لليمين ومرتين لليسار كسكّير عظيم، يترنّح ممسكًا بزجاجته، فيشرب منها رشفةً ويساقط رشفاتٍ على جانبيه فتبدو الأرصفة نائمةً على نسبة كحولٍ زائدة، تنتظر فقط «قرطاسة» الكون لتعلن بنفَسِها عن غيابها العظيم وكلمتها عن النظام الذي لم يبق له مخرجٌ آخر غير مشي الحيوات تلك، رهن الأرض، وأوقف المشاريع، وسرّح الشغيلة،

وباع حديد القطارات، وألّف الأكاذيب أناشيدًا للأطفال والسابلة، ومسح عن وجه الوطن كرامته، ولم يزل يخطط لموت الناس في كل حين، ولم يزل مصرًّا على ضياع الأرض وانهيارات الخريطة.

حدثتني عن كل ما حدث في حيّها وبين جيرانها، ولكني لم أحدثها بعد عن كل ما هو متوقع الحدوث في بلادها، ورغم ذلك ربطت رأسها بطرحتها، ربما لإحساسها بصداعٍ مفاجئ، وربما خشية أن يطير عنها، حال شرعتُ في الحكي.

- 5 -

الصبح يبدأ في القرية غصبًا عن الأشياء، كلّ شيء يحمل بقايا نُعاسه ويمضي، ترى النوم معلقًا على كتوف النخل، ورؤوس الحقول الخضراء، وعلى أجنحة الطير المتكاسل رغم زقزقته النشطة، الصبح الكلمة الجديدة الوحيدة في كتاب عمر القرية، لم يبْلَ بعد، ما زال جديدًا، كلمة لم تنسَ أريجها اليومي وهي تمرُّعلى كتابها الكبير، الكون، وأنا أقف كل صباح أتأمل الجميع، أحس رعشة في صدري، قلبي ينغز قلبي، كنت كلما أحس بوخزٍ خفيفٍ على قلبي أعرف أن «سيف» يكتب رسالته القادمة، رسالته دائمًا تبدأ بحوار بين قلمه وصفحة قلبي فتحدث الرعشة، ولكنه الآن لا يكتب!!! أعود أدراجي للمنزل وأقرأ رسائله، أفض حقيبة الرسائل أمامي، يقطع «سيف» الأوراق بطريقة غريبة، يقسمها لنصفين كأنه يقرّب ظل الشجن بين أطرافها ثم يبدأ الكتابة، يتوقف متى شاء ويكتب كيفما أحس، صدري ينغزني الآن بطريقة مدمية، أمسك بطرف الجدار وأغمض عيني، الغرفة ليست ضيقة ولكنها تضيق بمحتوياتها،

كل ما نحتاجه للحياة معنا بالغرفة، «ابتسام» تطالعني بنصف عين وقلبين وأنا ممسك بالجدار، ما بال هذه المسكينة تنام معي في هذه الغرفة الخانقة المظلمة وتترك مدينتها الواسعة؟ هل الحب قيد؟ تمسك بيدي..

أعرف أنك تفكر فيه.

.....

يا تاج... لا تؤكد حبّك له بالموت بجانبه، حبّك له في بقائك حيًّا حتى يبقى هو، غنِّ أغنياته، أخرج مسرحه للناس علِّم صبيانك كيف يقرؤون أشعاره، الصديق الراحل يحمِّل أصدقاءه مسؤولية بقائه، وإلا، فإنه يأخذهم معه ويرحل، أنت من يتحمل مسؤولية بقائه، ليس بالألم، ولا بإحساس الفجائع، ليس بالدمع ولكن بالمشي على شوك الحياة معه بأحذية الصبر المتهالكة الصامدة، إنها الحياة ماذا سنفعل؟

إنها الحياة ماذا سنفعل؟

–

أتجهُ نحو «العود» المعلّق على حمّالته في الجدار، أجلس صامتًا أدوزن أوتاره، أستعيض عن الدمع بالإغماض فيفيض رغمًا عن جَلَدي المنهار، تحمل «ابتسام» «سيفها» الصغير.. «سيفنا» الصغير..

ونغني سويًا أغنيته الحبيبة:

« كيفن تسافر... تاخد قليبي معاك

والعين تساهر... آه من هواك ياملاك»

كان يحبّها أكثر من بقية قصائده التي غنيتها له، كان يغنيها بقلبه وعينيه ويديه، يغنيها بسهومه وانتباهته، بكل طاقة حب فيه، غناها ثلاثتنا سويًا «سيف» و«ابتسام» وأنا، نجلس قرب البحر عندما يبدأ الغروب في استعمال ريشته الباهرة لرسم انسرابنا الكبير بين أيدي الليل، كان يقول لي: إن هذه هي اللحظة التي خُلقت فيها الأغاني، وهي اللحظة التي تسافر فيها روح المعاني بين الناس، لحظة يشرع الغروب في رسم أسراب الضياء المهاجرة، والعصافير العائدة، ويرصد لحظة خلود الروح لصمت العشق وفرفرة القلب حينها، يشرع الغروب في قراءة كتبنا صفحةً صفحة، ونحن نجرح كبد السماء بنظراتنا فتسيل دمًا خفيفًا كأنه يفكُّ عقال اليوم من دم حجامة الظهيرة الفاسدة، فيدخل في وجع الليل، ولكنه يعود صبيًا عند الفجر.

« ليلا سهرتو سعيد ماليهو آخر...

لا ليهو فجر جديد لا ليهو باكر...

نجمو الحسبتو وحيد قبال تسافر...

أهديهو أغلى نشيد من أوفى شاعر»

كان يصمت وأنا أغنّي هذا المقطع بالذات، يعتقد أنه يخصّه جدًّا، ما كان يردده معي، يحبّ أن يعيشه، يغمض عينيه ويبقى ساكنًا في جلسته ويشير عليَّ بأصبعه لأعيده، علام يضيق صدري الآن على عالم قلبي المتسع؟ قلبي الآن كونٌ من ذاكرة وصدري سجن من ألم، «ابتسام» تحاول أن تبقى صامدة، تحاول، أعتقد أنها تذكرت الآن رسالتها لي حين قابلت «سيف» صدفةً في زحام «السوق العربية» حليق شعر الرأس، وكان قد اعتاد أن يتركه كلبلابةٍ مجنونةٍ تلتف حول أسلاك الكهرباء العارية لا تخشى الصعق، وكأنه يباهي ليالي المدينة بكثافة الشَعر، بعد أن برد تنّور ليالي شِعرها وصاخب أدبها، واحتقنت بدمعها ودمها تقرأ في سرّها سور التعسف والنكوص كل صباح.

–

مساء الخميس 1990/ 00/ 00

حبيبي «تاج»

أنا أحتاجك

لماذا كل هذا البعد؟

أنا أعرف لماذا ولكني لا أمنع نفسي عن السؤال... كلما أمرّ في شوارع «الخرطوم» أتمنّى لو أنني أضغط على يدك حتى الألم،

«الخرطوم» ماعادت «الخرطوم» يا حبيبي، تبدو خائفةً من شيءٍ ما، شوارعها كأنها تستقبل شمسًا أكثر من شمس شوارع الكون كلّها، يسكن العرق أطراف سوقها وتسافر النسمات الصيفية الحلوة، حوافّ طُرقها المتكسرة تنام على اتساخٍ عظيم، الناس ينسون ملامحهم تلك ويندسّون وراء تقطيبةٍ دائمة وقلقٍ عظيم، يحرّكون أصابعهم بتوتر كمن يحسبون أصعب العمليات الفيزيائية، الأماكن كلها تودّع وتستقبل صنوفًا من الأمراض والفاقة وتغسل يديها عن الأخلاق، الخرطوم، كل شيء فيها يذكّر بلا شيء فيها، كلها تنسى كلها، ونحن يظللنا غمام الخوف والحسرة والموت، وكأنها تخلق توادًا عظيمًا مع مقولة سارتر « لا معنى لأن نحيا، ولا معنى لأن نموت»، ولكنّا نحاصرها بالحبّ، الحبّ هو المفتاح، أتمنى لو أنني أقبّلك في منتصف «السوق العربية» هذا، أمام الجامع الكبير، هنا حلقتان للتسول، الناس أصبحوا يستمتعون بالنظر لابتكارات المتسولين، دعهم يستمتعون بالنظر لنا ونحن نتعانق بعد أن هجروا أحضانهم لزمان طويل، سرقتهم فيه الحكومة من أحلامهم ودنياهم، هذا ليس جنونًا يا حبيبي، هذا الوعي بعينه، على الأقل حتى لا نفعلها في «دار جمعية القرآن الكريم» كما يفعلها صبيان الحكومة، ونقطع ظهور الناس بالخارج بالفتاوى الصارخة، الخلسة هي الجريمة التي تلاحق ظهورنا، كيف لي أن أمنحك قبلة في شارع وأتمنّع عليك في شارعٍ

آخر؟ هل المكان هو سيد الحدث أو الزمان؟ هل الأخلاق رهينة؟ أم هي سراحنا من أسرنا جميعا؟

حين نخلص لأرواحنا معانيها ستطهر الدنيا من مشعوذي الحياة، يجب أن نفهم سرّ اللعبة حتى ننطلق.

هل نحن كذّابون؟

هل يجب علينا أن نكون شخصًا ما في المسجد وشخصًا غيره في الحانة؟

وكيف لنا بهذين الشخصين أن نتعامل بردة فعلٍ متسقة مع الحزن والفرح والكُره والجسارة؟

هذه الانفعالات المتقاطعة هي من أتت بتجار الدين

يبيعوننا الجنة ونحن نخرج لتوّنا من الحانة

ويلوحون لنا بالنار، ونحن نقطع أنفاسنا باتجاه المسجد

فقط وفق ما يريدون تحقيقه

والرب يضحك منّا وعلينا..

كيف تفعل لإلهٍ واحدٍ الشيء ونقيضه؟

حبيبي «تاج»

«سيف» يبالغ في شوقه إليك

حمّلني حبًّا ما استطعت معه سوي الارتجاف وأنا أتجه بالحافلة صوب المنزل، قابلته بالسوق اليوم يحمل حقيبته على ظهره، نفس

القميص السماوي، نفس الحذاء الرياضي الباهت ولكن بنطاله يبدو جديدًا لم أسأله عنه ولم يجبني، حليق الرأس تمامًا، قلت له يا سيف الشعر ليس مسؤولًا عن الذاكرة، ضحك وقال لي (بطّلي حركات «تاج السر» دي) أنا لا أحلق ذاكرتي ولكني أتخفّى من أحداثها بمحاولة تغيير شكلي قليلا، وابتسم، (حتى البنطال له علاقة بذلك أعرف إنك لن تصبرين عليه أكثر من ذلك)...

قل له يا حبيبي إن يخفّف عن نفسه قليلا، تبدو عيناه منهكتين ويبدو بعيدًا بعيدًا، بعيدًا تحتاج أن تصيح عليه وهو واقفٌ أمامك، قل له يقترب قليلا، قرأ لي أشعاره الجميلة، يكتب الشعر بحروفٍ مستحيلة، يكتبه بدمه، اشتمّ رائحة شراايينه، والله

كم خسرته تلك المجنونة «عبير»، سألته عنها فابتلع عفويته كلها وصاح وهو يطيح بيده في الفضاء.

الله يلعن دينا... عرسوها

وعاد كمن سرقته أمنية إلى حقيبته وأخرج أوراقًا كثيرة صغيرة وقرأ لي

«الموت... المعنى الكامل للحياة

والحياة.. أغنية الموتى يا لطعم الأغنيات»

أدخلها بارتباك واضح وسألني وهو يمسح بيده على وجهه ليخفي ملامحه الملتاعة

كيف الحيوان دا؟ يقصدك

ولكنه فشل في إخفاء دمعته التي رأيتها فاستأذنتْ

حبيبي «تاج»

أمي سألتني عنك، هل مـازال يغنّي وهو يطالع السقف؟ ضحكتْ ولم أجبها، هل تعلّقنا بالسقف يا حبيبي، أو تهرب منّا إليه؟ هل تخترق حُجب السقف لعوالم من سمواتٍ جديدة، أنا أراك خارجًا عنّا، اللحن سفينة الخلود، والغناء بحرها الخيالي الأمواج، وأوتارك مجدافان عظيمان في زرقة الماء والسماء المتلاقية، إذن فالغرفة الضيقة هذه لابد لها من نظراتك الحـادّة، الحميمة، حتى ترسل سقفها لفضاءات جديدة قادمة، لا تعلّقنا بالسقف يا «سيف» علّقنا بنظراتك المتجاوزة، علّقنا بعينيك ومجدافيّ أوتارك.

لن أفعل سوى أن أشتاقك ولن أعرف غير أن أحبك، حتى وإن سمُّوه سجنًا

لماذا يسمّونه سجنًا ونحن أكثر حريةً فيه؟

الحبّ معادلة مستحيلة...

كلما أحكم وثاقه عليك كلّما أطلق سراحك لنفسك ولحياتك...

هل الحرّية غير أن تمنح طيورعينيك فسحة التحليق في حدائق حبيبك وتظل تنتظر ميعاد أوبتها لتبني أعشاشها في جسدك المسجّى مخلفةً حكّتها اللذيذة وأنت تسرح بينها عشًا عشًا لترى صغارها،

صغارك، وهي تفتح مناقيرها انتظارًا لحبٍّ خيالي الدسم؟

هل الحرّية غير أن تكتب السماء بعينيك قصائد من نجوم تندّس في قلبك نهارًا لتمنحك هدأة الليل وأنت تزرع شوارع «الخرطوم» اليابسة بشتول أملك في غدٍ وسيم؟

سجن سجن يا حبيبي... سجن سجن...

أحبك جدا...

أحبك جدا جدا جدا

«ابتسام»

–

الذاكرة تسكن غرفتنا

«سيف» الصغير يهذي بكلمات مجنونة ولكنها تجرح صمتي

إذن فلنرحل

ولكني ما زلت أغنّي «لسيف»

«عشا بنيتو معاك نديان وعامر

فرّخ حنانو غُناك ما ركّ طاير»

دخلت أمي الغرفة بلا استئذان، لم تفعلها من قبل، ولم أتوقف عن الغناء، أيضًا لم أفعلها من قبل، تزحزحت «ابتسام»، جلست أمي، تقاضت عن دمعتين كبيرتين ولكنها لم تحسن تجاهل الثالثة، وبدأت

تنتحب، يزداد نحيبها وغنائي، أنا أغسلها من ذاكرتها بالغناء وهي تغسل الغناء بنشيجها، هي لا تبكي ولكنها تمارس راحتها الكبري، الدمع، نحيبها يزداد وأنا أغني، «ابتسام» لم تفعل شيئًا ولكنها بدت تنشغل عنّا بسيفها الصغير، تتركنا لجراح سيفنا الكبير.

طرقٌ على الباب الخارجي

يزداد كلما تكاسلنا عنه.

أهلًا يا «الحجرة» اتفضلي لا جُوّة...

تضع طرف ثوبها على وجهها وتغتال ما تبقى من حياةٍ للدمع عليه

ساعة قاعدة أدق في الباب نايمين فوق اضنينكم أنتو؟ ازيك آ «التاج»

كانت «الحجرة» و«ابتسام» فقط من يقول لي «التاج» أبي وأمي وأهل القرية يقولون «السر» وأصدقاء المدينة يقولون «تاج السر»... جميل أن تفرق ذاكرتك على ثلاثة أسماء

كيف الشغل معاك؟

ياولدي شغل شنو؟ ناس اللجنة الشعبية قفّلوه.... تنهّدت وتبسّمت وهي تتحسس علبة «التمباك» في جيبها وتنقر عليها بأصبعها.

قالوا علمّت الناس العطالة.

أي عطالة يتكلمون عنها... يالنكات هذه الحكومة

–

كانت «الحجرة» فقدت ولدها الوحيد الذي كان يعمل شرطيًا ببورتسودان ومات مغدورًا، كان يعدها بالحياة كلها حال استلامه وظيفته الجديدة، فمضى وقد كتب عليها الموت الثالث، بعد الفقر ووفاة الزوج والمعيل، وكانت رغم ذلك جَلِدةً تهزأ بالموت الأول والثاني وتمدّ لسانها في وجه الثالث بغمزةٍ مستديمة في عينها، وغمزاتٍ كُثر في قلبها الذي ضمر حتى بات لا يقوى على النبض، ولكنّه ما زال كبيرًا يتسع للحياة بجانب شواهد ميتاتها الثلاث، ما زالت ترقص في الأعراس، وكأنها تهب ابنها رقصته التي كانت تتعهدها بالعناية في مزارع قلبها الخصب، لعرسه الذي لن يكون، وكانت تزغرد لكل عروسين جديدين ولكنها تبلّلها بسيلٍ لا نهائي من الدمع والرعشات، على كل حالٍ، استطاعت أن تقاوم الموت ببصيص الحياة وأن تضع ملح جسارتها في عينه التي لا تعرف الحياة، فيتألم رغمًا عنه، وتضحك في وجهه وهي تجمّل وجهها بابتسامتها الناصعة، وإن خفت بريقها قليلًا، ولكنّه مازال يشع، وتمضي صوب الحياة في الشارع تدندن بأغنيات ناعمة وتضرب بعصاها التي لا تفارق يدها على حجارة الطريق المهملة فلا تنفجر عيونًا من ماء،

ولا تتفطر تحت خطوها باهظ الحزن، ولكنها تمنحها عيونًا من ثقة الحياة بها.

« السلام عليكم... توفي عادل عبد الرحيم عثمان صباح اليوم... إثر مشاجرةٍ عاديةٍ، إنا لله وإنا إليه راجعون، حسن علي عثمان» برقية صغيرة غلّفت كتاب حياة ابنها وألفت آلاف الكتب بينها وبين القادم من سنين دونما «عادل».

«عادل» الذي صارع الحياة منذ ثلاثين عامًا، وصرعها، جاء الموت في لحظة سِكّينةٍ مجنونةٍ فصرعه، ما تجرّه على جسد الحياة بسيوفك الطوال كلها، قادرة سكّينةٌ صغيرةٌ أن تسلبَكَه في لحظةٍ عابرة.

قادرٌ حدّها اللئيم أن يلقي بأحشائك على قارعة أحلامك هكذا في جرّة يد.

«عادل» الذي نافح كل الكون ليجذب أمّه من وهدة العوَز، جذبته سكّينةٌ طائشةٌ إلى مجرّات الموت الفسيحة الضيقة.

وكانت أمه حين جاءها الخبر لم تتمالك نفسها من الضحك، نعم، هكذا بساطة الحدث الفادح، ضحكت ضحكة مجلجلة في وجه الخبر، لأنها كانت في تلك اللحظة تمسك بصينية البخور التي انتهت للتو من صنعها لعرسه.

ضحكت حتى بانت أسنانها وسنون شقائها جميعًا في دمعها المتهاطل قبل أن تسقط ساكتة

بدا وكأن غيمتها تصبُّ إلى الأعلى، فما كان الدمع ينزل ولكنه كان يتصعّد في السماء

ولم تسمع القرية منذَها، صوتًا أفدح من صوت مطر الدمع المبهول على صحن الأرض المبهورة.

ولكنها المشيئة

أن يمضي هو للموت برغبة سكينة مجنونة

وأن تمضي هي للحياة برغبة موتٍ واعٍ

وأن تتقاطع الرغبة والرهبة بين قبرٍ ودار

وأن تتزاحم الصور بين حلم يموت، وأوجاعٍ تحيى

مشيئة الحياة

مشيئة المشي على حدِّ الذاكرة

مشيئة القبض على جمر الفقد، لا جمر البخور المُعدُّ للعرس

بدأت في بيع الشاي والقهوة في دكان صغيرةٍ مصنوعة من جريد النخل، قبل أن يتوسّع قليلًا، فبدأت تبيع الخضروات والفواكه وعلف البهائم والخبز، وأحيانًا يمرّ بها صاحب «الباسطة» بعربته ويترك عندها بعض صوانٍ صغيرة، ولكنها كثيرًا ما كانت ترفضها لأنها فقط تجلب لها الذباب ولا يشتريها أحد، فأهل القرية لم يكونوا قد عرفوها بعد، وكانت الحجرة على كلِّ ذلك، امرأة بألف رجل، قاسية جدًا في حنيةٍ فائضة، يبدو لمن يراها صامتة لوهلتها الأولى

إنها لا تتكلم أبدًا، ويبدو لمن يراها تتكلم أنها لا تسكت أبدًا، تميزها نظارتها الغليظة، تتعرف عبرها على الناس بصعوبةٍ فائقة ولكن بحميميةٍ لا يخطئها قلب.

تنسلّت جنبات دكانتها الجريدية وأصبحت نهبًا لونساتِ الظهيرة، نفس الوجوه التي كانت تجيء للونس والشاي والقهوة عندها وهي تعمل، تجيء الآن وهي لا تعمل.

أغلقت اللجنة الشعبية بالحي دكانتها الصغيرة بدعوى التحفيز على العطالة

فقط أرادوا إخراجها من سوقٍ دخلوها.

كلّما بقيتَ وحدكَ في السوق، كلما استطعت أن تسبّح بحمد ربّك بقوةٍ أكبر، كلّما كنت القويّ الأمين جدًا...

فشل مشروعهم لأن الوجوه التي كانت تجيء «للحجرة» كانت تتآنس، وتصنع الحياة وكانت ترسم أفراحها على أطراف أكواب الشاي والنعناع، وفي قعر فناجين القهوة وبين ابتسامات «الحجرة» وقهقات الظهيرة المُملّة...

الآن ما عادوا...

عرضت «اللجنة» عليها أن تعمل عندهم في الدكانة الجديدة الواسعة التي بنوها بالطوب الأحمر، وزينوها بالطلاء الأبيض، وأغدقوا على بابها باللون الأخضر، وكتبوا عليها من الخارج «هذا

من فضل ربي» وكانت القرية كلها تعلم أي تغوّل حدث على فضل ربها ذاك!!

عرضوا عليها العمل كموظفة تقوم بنفس مهامها السابقة نظير أجرٍ زهيد...

رفضت، وما زالت تفتح دكانتها للونس وحمّى الحياة، والضحك المُعافى المعطون بالحاجة والفاقة، ولكنه ينزّ بالرضا، ويقطر بالحياة.

دا ياهو الدين الجابوهو لينا؟ تسألني

أجيبها بضحكةٍ مكتومةٍ وأمضي

كانت أمي تائهة وهي تجالس «الحجرة» الشاردة

«الحجرة» تسمع وهي تنظر للخارج وكأنها تستقي اللحون من عوالم أخرى

وكنا أنا و«ابتسام» و«سيفنا» الصغير غارقين في «سيف».

و«العود» في سهومه العظيم يخلق أنغامًا حائرة.

وكان «سيف» غارقًا في نعناعة الذاكرة خرافية النكهة.

- 6 -

هذه السهوب الخيالية تلامس أطراف تفكيري... أجلس على قمّة الجبل، كنت كلّما تضنّ عليَّ الظهيرة بدندنة هوائها، وتسلمنا للسموم الحارقة، وأصوات الدجاج المصاحبة لروائحه المتعفنة، وأكوام الذباب بارد الحسِّ، وثقيله، تشعر وكأن مهمته الكونية الوحيدة هي إثارة أعصابي، وخيوط العرق اللزجة، التي تمعن في أسر جسدك في شبكتها التافهة، كلّما تكالبت علي هذه العصابة ألوذ بالجبل.

فيه هواء جديد، لم يستخدم من قبل، كل الهواء في القرية يبدو وكأنه ليس جديدًا يستخدم لأول مرة، الأنفاس والضحكات والتعليقات كلها وكأنها مستخدمة من قبل، لا أحسّ أنني استخدم هواء جديدًا إلا عندما أجلس على الكهف البارز من قمة الجبل، تُثار الكثير من القصص حول الجبل، هناك حكايا تتحدث عن نفقٍ تتكدس بداخله الكنوز، كنوز النوبة القدماء، ولكن ذات الحكايا تتحدث عن لعنة تلك الكنوز، وأن كل من أصاب منها تمثالًا ذهبيًا أو ذهبًا خالصًا، أو منحوتةً أو مخطوطةً، أصيب بلوثةٍ ما، أو مصيبةٍ ما، أو لازمه سوء

حظٍ وعقلٍ مستديم.

حكوا لي عن أستاذ «حسن جغرافية» الذي ومنذ زمانٍ طويلٍ جدًا، يجلس أمام دكان «عثمان» على الأرض، يضع أصابعه المهملة على ركبتيه، ويبتسم للفراغ، أسنانه بلغت مبلغًا من الصُفرة تحولت بعده للبرتقالي، تتكدس بينها بقايا التبغ، نحيلًا حتى لكأن طبقةً من الجلد فقط بَنَت فوق هيكله العظمي، يُلاعب ابنته الوحيدة «مرية» ويحتفظ لها بكل شيء، فشل لمئات المرات من وضع أزرار قميصه البنّي الغامق على خطوط صفراء عريضة في مكانها الصحيح، دائمًا ما تكون إحدى نهايات القميص نازلة دون الأخرى بزرارٍ كامل وربما أكثر من زرار، وللحقيقة فقد استغل هذه الزيادة بصورةٍ عمليةٍ جدًا، إذ إن نهايات القميص الزائدة هذه ظلّ يستخدمها طوال الوقت كمنديل، بعد أن يسوّي كرة «التمباك» ويضعها بإهمالٍ بالغ تحت شفته السفلى، يمسح يده بنهاية قميصه تلك، حتى ليبدو لك أن «التمباك» الذي يعلَقُ بقميصه أكثر من ذلك المتعطّن بالكيس ينتظر التكوير.

كان أستاذًا بالمدارس الثانوية، وكان أنيقًا، مهذبًا، لطيفًا، مجيدًا لمادة الجغرافية التي اشتُهر بتدريسها، يقولون إنه في إحدى رحلاته المعتادة للجبل، وعلى عادة كل الشباب تقريبًا، صادف طريقًا مهملةً قادته لنفقٍ غريب، فتبعه، خرج بعدها بثلاثة أيام يحمل تمثالًا ذهبيًا لا يعرف عنه شيئًا الآن، ويحلّق في الفراغ، لم تنفع معه رحلات العلاج إلى

«العاصمة»، وإلى «القاهرة»، ولم تُفلح شيئًا جلسات العلاج الروحي التي بدأت بالذِكر وانتهت بالجلد بسوط «العنج». حكى لي يومًا قصته والتي تكاد تكون النسخة الألف المتغيرة لروايته.

تعرف يا جَنى، كان لا يكلِّم أي شخصٍ باسمه، يا جَنى أو يا شافِع وهكذا، يومي المشيت الجبل داك، دخلت بي هنا مرقت في «دنقلا»، جِنِس بقر وجِنِس غنم وجِنِس جُمال ماشات في الدرب دا... قاطعته:

لكن يا أستاذ تصل لغاية «دنقلا» وتجي راجع في تلاتة يوم؟

ياجَنى لا تقاطعني... قالها بعصبيةٍ لا تشبهه، وصمت بُرهةً حتى عادت ابتسامته لمكانها... أنا كت قعد أقول في شنو؟

قلت جُمال وبقر وغنم كتار في الطريق.

أي أي، دي لعنة التاريخ ياخي، نحن قاعدين في بلد التكوين، تكوين الخَلْق دا كلو بدا من هنا، الحضارات ألفي العالم دي كلها بدت هنا، أهلك الراقدين في المقابر ديل، مقابرم دي عمرها قريب عشرة آلاف سنة، اكتشفوا الكتابة، واكتشفوا الحديد، وصنعوا اللغة، الحروف، والرسم والتشكيل، نحتوا البيوت، وزرعوا، لكن ما قدروا يصونوا حضارتهم دي، أدوها الجّن، أنت قايل «سيدنا النبي سليمان» دا، كان وين؟ ياهو بيتو في جبلنا دا، لمان جا يموت قام الجّن، تتذكر الجّن الكان سجنو «سليمان» في الجبل وأفرغ عليهو قطر الحديد داك؟ أنا في مشيتي دي لقيت الغرفة المسجونين فيها، وحاولت أطلعهم،

السجن دا حاجة صعبة ياخي...

انتهزت فرصة مرور ابنته «مرية»، وتوهانه في حضنٍ غريب معها، وأنين لا تعرف مصدرًا له، غير أنه ينبعث من كامل جسده.

تركته، ومضيتُ في طريقي، أسمع قهقهاته من خلفي، ولكني أثق أن كثيرًا مما يخلطه بجنونه، يكاد يكون حقيقة ثابتة، بيد أنها مشوشةً، غير نقية، إذ إن الكثير جدًا من المنطقة المحيطة بالجبل تنبئ عن تاريخ ضارب في القدم، سحيق جدًا، نشأت عند سفحه الحضارات النوبيةً القديمة والتي امتدت لأكثر من خمسة آلاف عام، وقد تم اكتشاف العديد من المعابد والقصور حول الجبل، والنقوش التي كنا نكتشفها على أحجار الجبل منذ طفولتنا وما زالت تُكتشف.

التاريخُ فتك بـ»حسن جغرافية» والتصقت الجغرافية باسمه.

والبلاد فتكت بالتاريخ، وحرّفت الجغرافية وانحرفت بها، وتاجرت بالدين، ومشت على عجين اللغة تخبزه للفقراء، وعودًا وصكوك آخرة، بعد أن نفدت دنياهم.

هذه البلاد ضيعت تواريخها كلها، ولم تعد تكترث لحاضرها.

أصبح تاريخها قصصًا مجنونة على ألسنة مجانينها، وبات حاضرها نهبًا للأفكار المجنونة المتطرفة، وغاب المستقبل عن أذهان مثقفيها جميعًا.

مضيتُ، وقهقهات أستاذ «حسن» المجنونة تلاحقني، تجلد ظهري

ألف مرة، بنثار تمباكها، وحريق استهتارها بي وبالبلاد وبالكون ذاته.

حضارةٌ لم تُصِب البلاد بلوثةٍ فقط، ولكنها أصابتها بلعنة الغياب المستديم.

بلادٌ ناطحت حضارتها قبل سبعة آلاف عام أسباب السماء، واليوم يجلس صبيتها على الأرض لتلقي الدروس المكرورة الفاترة.

وإن رضوا أن يجلسوا على الأرض تعذّر عليهم الحصول على الكتاب.

وإن تحصلوا على الكتاب بمالهم الخاص، ضيّعت عليهم الحكومة العام الدراسي بإضراب المعلمين لعدم دفع أجورهم طوال ستة أشهر.

بلادٌ آل مثقفوها لنموذج أستاذ «حسن جغرافية» الذي لم يدخل في نفقٍ تحت الجبل وخرج منه ملتاثًا فقط، وإنما دخل في وهدة البلاد التي لا تحترم بلادها، ترقد آثارها في متاحف مصر وأوروبا، وتركن هي لبيع الذكرى والدين وخرائط الجنة.

بلادٌ يرقد النيل كالعمود الفقري العظيم على طول خارطتها، وتموت هي بشلل الأطفال والسلّ، كسيحة لا تقوى على الوقوف، تنزف من كل صوب.

أستاذ «حسن» الذي اصفرّت أسنانه، ربما اغتالته أيدي الجغرافيا التي كان يدرسها، بعد أن خرجت حدودها واحدة تلو الأخرى لجاراتها دون أن يحسّ أن هناك مكترثٌ ما، يحدّث طلابه عن سودانية

حلايب وشلاتين، فتمدّ لهم نشرات الأخبار لسانها، يكلمهم عن حصة مياه النيل، فيسمع شخير حنفية المدرسة الذي لا ينقطع، ويتطاول ليثبت لهم قدرة بلاده على إنتاج الطاقة الكهربائية المائية لاكتفاء البلاد وبيعها لدول الجوار، فيصفعه الظلام.

وهكذا واحدةً واحدة تتسرب ثوابته ويمضي بياض أسنانه، ويسافر عقله، فقط تظلّ قهقهاته المجنونة تلسع ظهري وحاضري، وتبيعني لعنة التاريخ والجغرافية والدين.

آهٍ على جدّي، كان يقول لي يا ولد، البلاد فيك لا تضيّعها.

يا جدّي البلاد التي أنا فيها ضيّعتني، فكيف أحافظ على البلاد التي فيّ؟

أستاذ «حسن» ضيّعته البلاد التي هو فيها، فأضاع هو البلاد التي فيه، ومضى لا يحفل بأزرار قميصه وأطرافه المتهدلة، كأنما يبيعها عقلًا بفوضى، أو كأنما تبيعه حقيقةً بسراب، ومعانٍ بطلسم.

هواء الجبل يخترقني، فتسرح حولي الأغنيات، البلاد التي ترقد تحتي الآن بلادٌ منتظمةٌ، صغيرةٌ، هادئةٌ، ولكنّي وما إن أرى بيت رئيس لجنتها الشعبية أرى وكأن هوةً ضخمةً تسحبها نحو المجهول، تبعد عني، تكاد تختفي، ويصلني صوت تحطمها بالداخل، ويتصاعد الغبار كثيفًا، يسدّ الأفق بحمرته النفّاذة، الرائحة الآن خليط بين رائحة الشواء ورائحة الجثث ورائحة اللا مبالاة.

آهٍ على جدّي، ليته يأتي الآن لأريه البلاد التي في داخلي، حتى يرى أي خارجٍ يتوزّعني، أي خارجٍ يهدّ كل ألوانه فيّ وأنا أغوص في داخلٍ باهت، داخلٍ لا يقوى على الرؤية وليس من عصا تقوده أو تحفّزه على المضي، ولا من طريقٍ رحيمة بأقدامه الحافية، ولا خرطةٍ يتبعها، و»حسن جغرافية» قد فتك به التاريخ.

وهناك، حيث يبعد مني النهر بعدّة أميال، كنت أسمع همسه، يقينه النفّاذ، قدرته الباهرة على الخلق والتكوين.

كان النهر مدينة من روح... تصطخب أجواؤها بالهواء وروائح الأشجار المتراصّة وعنفوان حركة الناس بين جنباته.

وكان ملحمة خرافية، كم من أغنياتٍ طفتْ على سطحه وكم من ألحان سرت بين تيّاره وكم من معارك حفلت بها أمواجه وطبعتها على خدّ نسمةٍ سارحة فتوزّعتها الأقاليم والأودية والمزارع.

كان للنهر أحاديثه التي وثّقت لها الأطيار وحفظتها عن ظهر محبة، الميادين، والملاعب، ورياض الونس والذِكر.

كان له «سيف» يصنع أمجاد معاركه الكبيرة، وشْمًا على ظهر الأيام وقمحًا وقطنًا ورصيد كرامةٍ في صوامعها، وملاحم وبطولات تتناقلها الألسن والأقلام، وتسيل لها محابر العاشقين والمناضلين وصانعي الحياة.

وكان له «تاج» ظلّ يلمع على ضفافه مشعًّا بانتصاراتٍ راكمت

الطمي في جوفه فمضت المياه أكثر عذوبة، وشعّ سنا بريقه يلهب المخيلة شِعرًا فريدًا، وينسكب خياله حقيقةً تزيّن صدر كتب التواريخ.

كان للنهر حقولٌ من نعناع، تحيط الضفاف بنكهة الحياة الباذخة... فيمضي الموت كسيرًا حسيرًا فاقد الحسّ، رغم فداحته، وأصابعه الباهظة التي ينشبها على جيد الحياة.

تبقّت للنعناع نكهته وبقايا طعمه التي تلاحق النشوة سطرًا سطرًا.

تبقّت له آخر خيوط ألوانه تعبر بلوحة الوجوه التي تحدّق في تعابيرها واندهاشتها الغارقة في ملح الذاكرة.

تبقّت للنعناع انتباهته الباهرة إلى مطالع المستقبل وهي تجري مع كل موجة، وتقفز مع كل رشقة رذاذ تتطاير بين سيقان اللوبياء والذرة الشامية، على جرفٍ بُنى على الثقة والشموخ والعزة.

وجذور الشجيرات التي تنمو على حافة النهر كانت وكأنها تخبر الأغصان والأوراق عن تواريخ جسارات ومغامرات مضت، وغوايات ما انحسر مدّها، ونبوءات ما زالت ترسم خيوط ملامحها على الحاضر، وهي ترى العيون ما زالت تبرق بوعود آلاف السنين ومازالت ترفّ بحكايات عودته الوشيكة لعوالمه باذخة الحضور.

أغنيات البشارة

- 1 -

كانت الشمس قد مالت قليلًا نحو غروبها، وبدا قرصها في كامل استدارته منقوصًا قليلًا من منتصفه الأسفل الذي غاص في الأفق، لم يتحدا تمامًا لأن أنهار السراب كانت تموج بينهما فتبدو لك كأن الشمس ترقص، أو كان الأفق يتململ على امتداده، ولكن الأكيد هو أن تيار السراب المتماوج كان ماضيًا في جريانه المجيد، يلعب بالأعين الناظرة والقلوب المتأملة ويطبع يقين التقائهما الأكيد بشكوكٍ عظيمة، شكوكٍ تحوم حول طبيعة الأشياء من بُعد، ولا تنتهي بارتجافة القلوب القريبة، لأن للقلب رعشته وهو يدلف صوب مدائن الليلة المعتمة، والعتمة رعشة، العتمة مسكنٌ آمنٌ للخوف، وهو المسكن الوحيد في الكون الذي يجتمع فيه الأمن والخوف، وليل القرى أفدح سيرةً في الخوف من ليالي المدن، لأن القرى تذهب بكاملها إلى مساكن الخوف تلك، ليس هناك كائنٌ يتخلّف عن حملة الدخول تلك، ولكنهم حتمًا يختلفون في دخولهم هذا، من يكسر وحشته بالبقاء ملتصقًا بالآخرين، تضحكه النكات الميتة، وتبكيه الأغنيات الفالتة، ولكنه

الخوف يوزّع حسّك باحترافيةٍ خارقة على كل ميّتٍ فيحيا، ومن يكسرها بالخمر، فالخمر عدوة الظلام الأبدية، تمشي بها وكأن أنوار العالمين تتابعك، رغمًا عن تعثرك المضحك، ولكنك تمشي، لست منتصب القامة تمامًا، وربما بدون قامةٍ أصلًا ولكنك تمشي، حتى وإن زحفت فلا بأس، ومن ينشغل عن نظرات الظلمة بالهمهمة، وتواتر حركات الجسد بطريقة توحي بأنها طاردةٌ للخوف، حتى إنها تخلق بينك وبين الأمكنة حواليك غيماتٍ ماطرةً، برعدها وبرقها، تناثر حولك رذاذ الشجاعة فتحيل الليل نهارًا، بالضبط كأن تجد نفسك في طريق مظلمةٍ مقفرة، يصرخ الصمت فيها، فتنبت على جسمك شعرٌ شوكي غريبٌ، تطعن فيه وتلعقه وتتمسح به، وتبدو يدك وكأنها ليست لك، وكأن يدين أخريين يسالمانها بأصابع من شوك وزيت، وعندها تغني، ربما تداخلت عليك أكثر من أغنية ولكن، الغناء وحده من يناثر عليك ذلك الرذاذ ويأخذك من الأيادي الشوكية اللزجة إلى يدك التي تعرف، بالطبع ليست يدك التي تعرف تمامًا ولكنها فقط ملعوقةٌ ومتَمَسَحٌ بها لا غير، وتمضي في غنائك المنحاز هذا فترى وتسمع وتحسّ وكأن هناك خطواتٍ تلاحقك كلما تسَارع نبضك تراجعت كلمات الأغنية، وحتمًا انسحب رذاذ الشجاعة من حولك، وسطت جيوشٌ من الحكّة غير اللذيذة في حلقك الذي نسى الماء، وكلّما ارتفع صوت الخطوات الملاحقة، كلما نَحا سائل

الأمان الداخلي إلى التخمُّر، فتظهر روائحه حولك، وهنا تتدخل السُور، هنا فقط آخر محطات الغناء، وهناك على يمين الطريق يجلس مجموعة من الشباب، تتناهى إليك أصواتهم وقهقهاتهم الماجنة، ولكنهم يجلسون في مكان لم يعتد الناس أن يجلسوا فيه نهارًا، حتى وإن كان ذلك، فهي فرصةٌ سانحةٌ للدخول في المسكن الآمن هذا، حيث تبادل السورِ بسائلٍ غنائيٍ آخر، هو سائلٌ لأنه يخرج من فمك وكأنه يندفق من زجاجة، صوتٌ ارتطامه بالخارج يبدو أقرب لحنفيةٍ منه لفمْ، يا للهول، أصابع قدمك أصيبت بداء الطعن وبدت منبتًا للشعور الغريبة، وأنت تغزّ السير، لستَ مباليًا بالمرة بسوائل الأمان الداخلي المتخمّرة التي انفجرت تحت إبطيك، موزّعٌ بين رغبتك في السلام على مجموعة الشباب تلك وبين عنادك الفطري للمرور دونما سلام حتى لا يعتبروك خائفًا، يفاجئك صوتٌ عن يسارك بكامل الوضوح:

يازول وين ماشي في الضلام دا؟

تنقذك العناية الليلية وحدها بصوت تتعرف عليه من أول وهلة رغم تداخل محطات السور والغناء السائل في راديو قلبك المفطور لحظتها، بعد أن نزعتِ الرعشة كل سراويل قلبك المبللة.

الحسن؟ يازول مالك حايم بي جاي؟

ولكن عناقك المتجاوز حينها يفضح وصولك لخط النهاية، لا

تدري هل كنت الأول أو الأخير ولكن الوصول في حد ذاته انتصارٌ باهر، وربما قرأ «الحسن» حينها كتابك جيدًا ولكنه يدّعي الأمية على كل حال، وربما قرأت أنت أيضًا كتابه فالمصائب تزرع شوكها اللزج في كل الأيدي ولا تتخير.

عند مرورك نهارًا بنفس المكان تجد أن الشباب الذين كنت تسمع أصواتهم وقهقهاتهم الماجنة بالأمس، وتنشغل بين أن تلقي عليهم السلام أو تتجاهلهم ليسوا سوى سدرةٍ يابسة، تبدو الساحة المحيطة بجذعها مكبًّا للقمامة، والأوراق والأكياس الطائشة، ويطلق عليها الناس «شجرة الجّن».

- 2 -

حركة الناس في الشارع كانت مختلفةً عن المعتاد، لأنها الليلة التي تسبق عيد الأضحى، ولهذه الليلة، أو قل مطلع هذه الليلة، نشاطٌ محموم، كثيرون قادمون لحضور العيد، من المدن البعيدة والمنافي الأبعد، كثيرون غارقون في إلحاح الأطفال والنساء، كلهم غارق في إلحاح الليلة نفسها، فكلما أطفأت اللحظة موقدًا لنار طلباتٍ منتظرة، كلما أوقدت لحظاتٍ أكبر، نيران طلباتٍ ألّحُّ انتظارًا، والناس أصبحوا لا يكادون يلحقون بقطار، ظلوا يطاردون قطار الأسعار الذي يكاد يطير من فوق أرضهم طيرانًا، ففاتهم قطار الحياة برغم حبوه تحت حوائجهم المتراكمة، وبعد ذلك كلّما عادوا مهدودين نهاية اليوم، دهسهم قطار الليل والعتمة وباتوا يتزاحمون الشكوى، مثلما كانوا يتزاحمون في قطار «كريمة»، الناس وحوائجهم يركبون في كل مكان، عربات القطار، والممرات، والسلالم، ولم تنجُ حتى المراحيض منهم وأكوام حاجياتهم، تجدهم يرصونها بعناية في المرحاض ويجلسون عليها، يتآنسون ويتحدثون في السياسة والاجتماع، بل ويعدُّون الطعام

ويأكلونه، يختصمون ويصطلحون، يضحكون ويبكون، والقطار يسرع حينًا، ويبطئ أحيانًا كثيرة، لا يعبأون به مطلقًا، إن أسرع أسرع لنفسه، وإن أبطأ فعليها، إنهم هاهنا جالسون، هم في الأساس أحضروا معهم «الزوادة» التي تكفيهم لشهر ويعلمون أن الزمن الافتراضي لرحلة القطار من مدينة كريمة إلى عاصمة البلاد «الخرطوم» لا تزيد عن اليومين، هناك تهيئةٌ فطريةٌ خُلقت معهم بُنيت على التأخير، وكل سفرٍ ينوونه يسمعون فيه صوت فطرتهم، لا حسابات الحكومة، وصوتها المبحوح، ويحكون فيما يحكون أن القطار على أيام الاستعمار كان يصل في زمنه بالثانية، وأن الناس كانوا يقومون بضبط ساعاتهم ومواقيتهم على جرس ساعة المحطة وصافرة القطار، يصل إلى محطته بالثانية، وإن تأخر ثانية واحدة لزم على سائقه كتابة تقرير عن سبب التأخير ذلك، بعد أن يوقّع على تعهدٍ بعدم العودة لذلك إن لم يكن السبب خارجًا عن الإرادة فعلًا، والآن، يا للتقدم، كلما تأخر القطار، كلما زادت ساعات عمل العاملين به الإضافية، إذن فلماذا يصل أصلًا؟ أورثنا الإنجليز نظامًا يحاسب بالثانية، فمضينا نحفّز الناس على التأخير بالأسابيع.

بالله العظيم، زمان القطار دا يقوم من «عطبرة» دي، الساعة تسعة بالثانية وتحسب فوق يدك 12 ساعة أنت في محطة «بحري»، مرة كان عندنا قريبًا لينا سواق قطار وكان عندو عرس أختو، وأظنو ساهر ونام، صحا مهجوم وقام جاري وصل المحطة تسعة إلا ربع، لقى

المفتش الإنجليزي واقف قدام المحطة، فبادره، ياخواجة والله عندنا قريبنا اتوفى ومشينا الدافنة والناس كتيرة وزحمة لامن الحمد لله دفناهو وطوالي جيت هنا و... قاطعه الخواجة أنت موقوف عن العمل ارجع الدافنة بتاعتك، أنت ما تحترم آلاف الأحياء راكبين في القطار منتظرين مواعيدهم، تحترم واحد مات وفي آلاف الناس ممكن يدفنوه بدلك؟ أنت لو احترمت نفسك في الأول ما كان اتأخرت وبعدين أنت كذّاب، لإنو أنا جيت ماري الساعة تمنية من قدام المقابر مافيش حد فيها يللا روح بيتكم.

بالله شوف الخواجة الكافر ود الكلب دا يقول لي أنا كذاب؟

قالها لنا وهو عائدٌ يجرجر أذيال كذبته تلك، وسكتْنا نحن إلا من مجاملةٍ هنا أو هناك، نستر خيبة كذباتنا بلعن الخواجة الكافر.

شفتو كيف؟ نصرناهو هو الكذاب على الخواجة الصادق والحريص على دقة مواعيد مؤسسة كاملة، وأهو عينكم تعاين.

كذابون ومختلقو أكاذيب، وسفلة، على أعلى قمة هرم البلاد، لأنهم فقط ليسوا خواجاتٍ كفرة، ويحسنون ترديد الهتافات الفاسدة، الهتافات التي دمرت كل البلاد، السكة حديد، مشروع الجزيرة، الخدمة المدنية، النقل النهري، وما زالت تُدمر، ما زالت تُردد، وما زالت الأرض تُنتقُص من أطرافها، ما زالت تُردد، وما زالت البلاد تنسحب نحو فنائها الوشيك، نحو حتفها المؤكد، وعلى أطراف سرير جثتها

الباردة ما زالت الهتافات الفاسدة تتدحرج في نزولها وصعودها المقيت.

التفت «جدّي» نحوي وهو يغمز لي بعينه مبتسمًا

اسع ناس أبوك ديل بدل قاعدين يدوعلو في الخرفان ويرجوا الضحية دي يسووها لحم وشربوت، ما كان أخير لهم يمشوا يحجوا شوية يبيّضوا صحيفتم دي ؟

والله تقول شنو يا «جدي»؟ ناس دنيا ساكت... أجبته ضاحكًا.

ناس دنيا يا ود الكلب؟ يقولها «أبي» وهو يملأ يده من التراب تحته ويهيله ناحيتي، أجري وأنا أضحك، ويتعالى ضحك «جدّي» من خلفي.

خلاص آ البوم، مي صح ناس دنيا، أسع أنت آخر مرة مشيت الجامع متين؟ يومك كلو قاعد في المُراح وسط البهايم.

وترتفع دائرة الضحك والقهقهة عاليًا عاليًا، تأتي «أمي» تخبّ في سيرها تضع الثوب على رأسها، وبيدها فانوس صغير هالة ضوئه تبدو كفتاة خجلى تقاوم مقابلة حبيبها بنفس سطوة رغبتها في ذلك، تتلوى مفسحةً المجال لخيوط الدخان لرسم لوحاته أمامنا، تتابعه بعض فراشاتٍ حائرة يسمونها هنا «أبوالدقيق» لحمقها وانتحارها بدخولها مباشرة للنار المضيئة.

بكرة بعد تصلّوا الصبح طوالي تجوني في التُكُل بالله عندي ليكم شغلة.

يا ولية أنت جنيتي واللا شنو؟ تُكُل شنو كمان البنجيك فيهو؟ والله ياهو.

تجو ترفعو الشواويل الجبتوهن ختيتوهن في النص ومشيتو ديل، نشتغل لكم وين يعني؟ وتقعدوا من الساعة تمنية تكوركو اللحم وينو اللحم وينو؟

نظر إلينا جدّي وقال:

لا كان كدي عندك حق، ثم قال بعد صمتٍ مصنوع، أحسنلكم تقوموا تشيلوهن من أسع، بكرة بعد صلاة الصبح عندي ليكم مشوار.

مشوار؟ بعد صلاة الصبح؟ سأل «أبي» مستنكرًا!

أبيي... ألقمه «جدّي» الردّ بكلمةٍ واحدةٍ لم يزدها، وقام مستندًا على عصاه وباقي صرامته.

–

سرنا – «أبي» وأنا – خلف «جدّي»، والشمس تجهد في إرسال أوائل أشعتها على الكون تبدو كحزمة دخان الفانوس الرفيعة، غارقة في بحر الليل، الذي بدت وحشته تخفت وتسافر إلى ليلها الطويل الماضي، ركبنا المركب الصغير، جلس «جدّي» على مؤخرتها صامتًا محتميًا بثوبه، وممسكًا بيديه على عصاه الغليظة، يضع رأسه على قمتها مغمضًا عين وفاتحًا الأخرى على كامل اتساعها، مع تقطيبة الجبين،

كعادته دائمًا، وكان قد أجاب على سؤال أحد أقرانه له عن إصراره على إغماض عينه والاكتفاء بالنظر بواحدة فقط.

دحين أنتو الفاتحة دي أملوها، وأرسل ضحكته الصاهلة.

البحر عند الفجر يلمع كمرآةٍ رمادية اللون، هاشًا، يبدو مستلقيًا يطالع السماء، يهمس في حركةٍ ناعمة، وكأنه يستمتع بآخر لحظات نومته وهو يتقلّب في هدوء بالغ يسبق عودة النهارات الصاخبة، على ضفتيه التي تتسارع فيها دقات نبض «الوابورات» فيرتفع ضغطه قليلًا، وتبدو بعض العصبية على أمواجه، «أبي» يجلس مهيبًا على مقدمة المركب، يسأل «جدّي» أسئلةً هامسة، ويجيبه «جدّي» بذات الهمس وربما أكثر منه، وكأنهما يستمعان لحوار المجاديف مع مياه النهر الهادئة، وخيوط الفجر تتسلل لصفحة الكون، ويبدو كخيطٍ أبيض، بياضٌ لم يتشكل كليًا بعد، هناك على رأس النخيل المتراص في صمتٍ فريد.

الهدوء يعزف مقطوعته الموسيقية الباهرة، ما بين أزيز حركة المجداف وهو يلتف حول سواره الحديدي المحيط بقطعة خشب ناتئة من طرفي المركب، وبين ضربة المجداف على سطح الماء، وحركة النسيم التي تلسع صفحة الماء فيكاد يقتلها الحياء تسرع في الاتجاه المعاكس، والعيون تتجول في محيط الخضرة اللانهائي الذي يحيط بالنيل في مجراه الأبدي، خضرةٌ وكأنها سياج الروح الذي يلتفّ على جسد النهر فتتخلق الحياة بداخله، حتى لكأن أسماكه تحس بوخز الروح ذاك فتقفز

واحدة هنا مأخوذة به، وتمدّ أخرى خياشيمها على السطح، تشقّ التيار في سرعة واضحة وكأن سحرًا مسّها أو أن شوكة عشقٍ لسعتها حيث مكامن شعورها فانفلتت على السطح، قبل أن تعود إلى أعماق النهر، أعماقها، أعماق أسرار الكون المستمرة.

–

أوقفنا المركب ونزلنا، والفجر نشرّ بساطه على هدأة المكان فحولها إلى بدايات الصخب الأولى، أصوات العصافير، وحركة الدواب في استيقاظٍ متناوم، ولكن صبيحة العيد وشروطها فرضت غيابًا منطقيًا على حركة الناس هناك، مضينا في دربٍ ضيقةٍ بين أشجار النخيل، على نفس مشيئة الحياة، «جدّي» يتوكأ على عصاه في المقدمة، مغمضًا عينًا وفاتحًا الأخرى على آخرها وهو يهمهم بذكرٍ هامسٍ، وخلفه «أبي»، به نشاطٌ بادئ ورغبةٌ محمومةٌ في معرفة سرّ «جدّي» الذي لم يفصح عنه مطلقا حتى اللحظة، تبدو قامته منتصبة أكثر وكأن السنوات لم تقوَ على وضع أثقالها عليه مثلما فعلت مع «جدّي»، وأنا في المؤخرة، كلّ جريدة نخلٍ يتّقونها تكاد تصيبني وهي تعود باندفاعها على وجهي حتى أميل يمينًا أو يسارًا، وكأنهم يرمون عليَّ كل تجاربهم، الفاشلة والناجحة فأتخبط بينها، أنجو حينا وتصيبني أحايين كثيرة.

وقفنا أمام شجرةٍ عظيمةِ الساق، ولكن أغصانها يابسة، وليست

بها أوراق مطلقًا، إلا من بعض براعم تتشتت على طول الجذع، لتنبئ فقط عن حياتها، لا أثر آخر، فقط تحيط بها الرمال من كل جانب، كأنها ولقربها من المنازل كانت تشهد ماضيًا عظيمًا، ولكنها بلا حاضر، وليس من ملامح مطلقًا لمستقبلٍ سوى الرمل الذي يراوح بين أن يدفنها أو أن ينسحب نازلًا عن ساقها باستمرار، أحاط «جدّي» ساقها الضخم بيديه وقبّلها وقال:

دي «حرازة ود قدُّورة»، بدأ الجيش مسيرته من هنا، والتفت صوب بلدة «أوسلي» باتجاه النهر، والتي لم تفق بعد من ليلة عرفات لصباح العيد الصاخب، ثم أكمل:

من هنا بدينا ومن هنا حا نستمر... جدودك مرقو يوم الوقفة، وجهزوا أنفسهم للحرب والدفاع عن البلد، وعيّد نصهم في الجنة، والنص الرجع سيرة شجاعتو عيّدت للناس.

قالها وهو يمسك يدي بقوة، ويقرّبني من جذع الشجرة اليابس، قريبًا من أغصانها المتهدلة، كنت قد خرجت لتوّي من المعتقل، وحين جلس الرجال يتسامرون بتجربتي، ويتساءلون ساخرين، وخائفين، ومشفقين، ومحرضين، كان «جدّي» يجلس بعيدًا، ويطالعني بعينيه الاثنتين، ويكاد لا يرمش، يسمع في فخرٍ بالغ حكايات تحمّلنا للتعذيب البدني والنفسي الرهيب، والوحشي، الذي كنّا نتعرض له، وكان كلّما سأل، سألني عن رفاقي، يبدو أنه قد اطمأنَّ عليّ بعد أن

تقابلنا واحتضنني طويلًا دون أن يتفوّه بكلمةٍ واحدة، ولكنه لم يزل يسأل عن رفاقي، وعن صمودهم وألا يكون فيهم من انْهار جرّاء هذه الأفعال الوحشية التي تعرضوا لها.

يا ولدي البيلحق ينكسر فيهم تاني ما بينجّبر.

وكانت عيناه تبرقان بلمعةٍ غريبة حين أسرد عليه قصص جسارتهم، وإيمانهم العميق بقضيتهم، ويهمهم فقط وهو ينظر إلى السماء:

رجال، رجال، الله يغطي عليكم، الله ينصركم.

كنا ونحن نرجع صوب المركب في النهر، والصبح قد طلى الأفق بلونه الذهبي المشع، والطيور دفقت على الكون أناشيدها، تسيل على جريد النخل وأوراق أشجار المانجو والجوافة والبرتقال، وتشحذ همة الأعشاب تحت أقدامنا، فتكاد تطير وهي تشبّ بأعناقها، حتى يبلل الندى أرجلنا، وأحذيتنا، وتصبغها بخضرتها النفـــاذة، كنا نسير في طريق العودة هذه، أنا و»جدّي» في الأمام، ممسكًا بيدي في صلابة، وتركنا «أبي» في الخلف يتلقى تجارب الماضي والمستقبل، ويميل برأسه يمنة ويسرة من حركة جريد النخل التي نبعدها عن وجهينا في الأمام، الحاضر يمشي خلف الماضي والمستقبل المتماسكين، يأسى على أبيه وذكرياته، ويشفق على ابنه وأحلامه، يمشي بمحاذاة خيباته وانكساراته وانتصاراته، يتسمّع أغنيات النصر، ونهنهات الهزيمة، يرى طيور الجسارة تحلّق فوقه، ويدوس على دودة الانتكاسات الميّتة

تحت رجليه، يمشي في المنتصف، خالقًا رأس مثلثٍ يطعن في كل خيبة مرّت ويفتح الباب أمام استلهام المستقبل من نصاعات الماضي، قيمةً بقيمة، وصمودًا بصمود، ويقينًا بإيمان.

تكاد أصابع «جدّي» تنطبع على يدي وهو يضغط بقوة، ويحيلني بعينيه إلى الضفاف المترامية الخضرة والرفعة، وكأنه يبهرني بكتاب زمنه، وينتظر مني كتاب زمني، دخلنا إلى المركب وجلسنا سويًا في المقعد الخلفي، ومسك «أبي» بالمجاديف في رحلة العودة، وهاهو المثلث ينقلب الآن، الحاضر يقود الماضي والمستقبل المتماسكين، ويبحر هادئًا صوب القرية، وقد غرقت في أثواب عيدها، وكأن «جدّي» أراد للعيد أن يصبح عدة أعياد، أهمها عيد الذات التي تصعّدت إلى أصلها واكتشفت منابعها جميعًا، وقرأتْ كتاب ماضيها جيدًا، وقادتها مجاديف الحاضر صوب صناعة مستقبلها الناصع القادم، يا لروعة الدرس يا «جدّي»، أقولها صامتًا وأنا أفلت يده من يدي، واقبّلها وأعود وأمسك عليها بقبضة أقوى من قبضته المعروقة التي تجري فيها دماء كثيرة من التواريخ والنضالات وحروب الكرامة، وعلمت حينها أن «جدّي» لا يعتزّ بي، وبرفاقي فقط، وإنما يعتزّ بتاريخ مشاويره التي انبتتنا في مزارعه الخضراء، ومضى يوزّع نظراته المشعة بلمعتها الفارهة على رؤوس النخل، ويخيط نقطة التقاء خط الأفق مع تيار النهر، في وحدة أبدية.

للحقيقة، وبرغم أن لعيد الأضحى في الأرياف مذاقًا ولونًا ورائحة

تظلّ تتعلق بقلبك وعلى طرف لسانك وبين حواسّك كلّها، وأنت تخرج في ثيابك البيضاء والقرية تخرج في منازلها البيضاء، الجير الأبيض يكاد يحملها من على الأرض والناس في قلوبهم البيضاء يتبادلون المحبة والتحايا والأمنيات، يدخلون كل المنازل ولا يخرجون وإلا قد علِقت بهم ابتسامةٌ أو دمعةٌ، أو طرفة، أو تذكرة راحل، في كل منزلٍ يدخلونه، حتى لكأنك تراهم بقايا وأعقابَ مكتملة في نهاية طوافهم ذلك، وتكاد ترى الحياة جسدًا صحيحًا يجالس الناس في مجالسهم، ويتنفّس هواءهم وأهواءهم، وكأن للعيد صيحةً في صورِ المحبّات والعشق الفطري والحياة، ينفخه صباحًا، فتشبّ كل المخلوقات عن طوقها وقيودها، وتمضي طليقةً فارعة الحزن والفرح، فارعة الحنين، فارهة الوجد، ويتداخل البياض مع كل الطبيعة المحيطة، فتتراءى لك المزارع بيضاء من فرط خضرتها، وتبدو لك السماء بيضاء من شدة صفائها، وتبدو لك الطريق مستقيمةً مستويةً وكأنها رسمت بأيادي جميع المعماريين، متسقةً، ممهورةً بنفس الخطوات المستريحة، وما تدري أين ذهبت حفرها وحجارة أركانها الصلبة، وما تدري أتلبس حذاءً من جلد، أم هو حقيبة صندلٍ أُغرقت في رملٍ مغسولٍ بماء ورد، وحُشيت حوافّه بقناديل من قطن، فالأرجل رافلة في سعيها تتسابق أصابعها في الامتنان فتمشي، مشيًا أشبه بالطيران، وتتسع «دكانة» القرية الضيقة فيه، فترى الأرفف متراصّة بها كل ألوان الكون وبضاعته، والصبية يدخلون

بوريقاتٍ فاترة ويعودون بالبالونات الملونة وقطع الأسلحة الخفيفة حد الرهافة تطلق الموسيقى، وليس في غيره تخرج موسيقى من قطعة سلاح، وبعضها يمتلئ بالماء لا بالرصاص ويناثر رذاذه في جلابيب الرجال البيضاء فيزيدها لينًا على لينها ونقاءً على سماحتها، الأطفال ذاتهم جزءٌ من صخب الكون المفرح، تتراشق أغنياتهم وتصطخب ضحكاتهم، فتسري في الجو نسمةٌ غريبة برغم سوء الصيف ولداحته.

برغم كل ذلك، كنت متوجسًا جدًا من جلسة «جدّي» القادمة، لأنه ومنذ عودتنا من رحلة الفجر تلك، دلف إلى غرفته وأغلق بابها ولم يذهب حتى للصلاة، خرج لوهلة قبّل «أبي» و«أمي» في جباههما، ودسّ ورقةً ماليةً في جيبي وانطفأ مجددًا في غرفته، لم يشهد قراءة «البرّاق» ولا تكبيرات العيد التي تبدأ مبكرًا ولا تنتهي، كنت وأنا غائرٌ في ازدحام الرجال والنساء، أجد نفسي بعيدًا جدًا عنهم، أرى «جدّي» يغدق عليّ بالسرّ تلو السرّ، ويضغط بيده على يدي حتى تستنطق ألمها وأملها ورعشة الخدر في أصابعها.

كنت كلما تعانقت عناقًا عيديًا أبيضَ، عدت لألقي نظرةً على غرفة «جدّي» ولكنّه غارقٌ في نهر وحدته، وسطوة باب الغرفة الصلد، حتى شارف اللحم على الاستواء، وهو الذي كان سابقًا، هو من يعدُّ لذلك، يحضّر الخروف ويشرف على كامل عملية الذبح والسلخ والتقطيع، وملاحقة النساء بالتعليقات والتعليمات الصاخبة، خرج إلينا، توسّط

«عنقريبه» «المخرطة» الكبير، صامتًا إلا من ابتسامةٍ بعيدةٍ على شواربه وقال لي:

بعد نفطر يا «التاج» دايرك شوية.

خير يا «جدّي».

لا خير عندي قصتين داير أحكيهن ليك.

بدأ أبي غير مكترثٍ لذلك، وهو يعدّ السفرة لروّاد العيد، ويلاحق الصبية بالتعليمات ولكنه قال له:

يعني القصص «للتاج» براهو؟

أي القصص «للتاج» براهو، أنتو ما فيكن فايدة تاني، اللحمة دي إن شاء الله تقدروا تاكلوها.

وضحك وهو يمرّر يده على شواربه، ويتحسس اللحاف تحته، يعيد شدَّ الملاءة ويتحقق من وجود علبة «التمباك» تحت المخدة، والشوكة الصغيرة التي اختارها بعناية من جريد النخل، على المنضدة الصغيرة لمداعبة الأسنان بعد حفل اللحم القادم.

لم تنقطع حركة الناس وهمهمتهم العالية، وصراخ الصبية يطبع المكان بعلامته الفارقة، يتوزّعون على طول الحوش الكبير الذي كاد يمتلئ بالناس، النساء في ثياب العيد، تلتصق روائح الحناء بالهواء وتطوّف بين الجموع، تتعلق رِجْلٌ خلفيةٌ واحدة من الخروف على حبلٍ يتدلي من سقف باب المنزل، تحته خرائط من دماء، وجداول من ماء،

يرقد الجِلْد ملفوفًا على رأس الخروف الذي يعضّ لسانه في أسفٍ بليغ، وهو ينظر للمجهول.

روائح العيد تحلّق كلّها في المكان، الجلاليب الرجالية البيضاء وقد فاحت رائحة «الظهر» منها حتى كاد يفتك بها، يبدو بعضه غير مذاب جيدًا فتظهر خطوطه الزرقاء على بياض الجلاليب، ويطفر نفاذًا إلى الأنوف مباشرة، والشواء يعبق في سحابة الجو كلها، لا شيء غيرها.

موزّعٌ أنا بين تفاصيل العيد المعتادة، وصوت «جدّي» الداخلي الذي يناديني لقصصٍ لا أعلمها.

«جدّي» الذي كلما مشى أمامي، مشى التاريخ والحاضر والمستقبل، كلما اهتزّ اهتزازًا وهو يقرأ القرآن على مصلايته الرثة، كلما فهمت المعنى الصحيح للدين، وكلما أخذتْ عينيّ نظرتها المتمعنة إلى أعالي النخل وأصوات القماري تهدل فوقه، كلما قرأت كتاب حياته صفحةً صفحة.

- 3 -

«حرازة ود قدّورة» التي وقفنا تحتها، «جدّي» و«أبي» وأنا، ومسحت بيدي على جذعها الناعم، وهو يمور بكل أحداث وحوادث السنوات الماضية، كانت نقطة التقاء الجيوش التي تجمعت من كل القرى والأمصار القريبة والبعيدة، بعد أن تم تحرير الخرطوم، وانسحبت حاميات «الأتراك» من «بارا» و«بربر» ومضت تعسكر في مدينة «الدبة»، انتظارًا للحملات القادمة من «مصر التركية» لإعادة إسقاط «الخرطوم» مرةً أخرى، وكان «المهدي» ومنذ حصاره وقبل استيلائه على «الخرطوم» يعتبر أن وجود هذه الحاميات يمثل خطرًا كبيرًا عليه، وقرّر بعد تحرير «الخرطوم»، العمل على إزالتها تمامًا، وبدأ عن طريق واليه على مدينة «بربر» «محمد الخير» العمل على وضع خطةٍ تقطع الطريق عليهم، وتشتغل بطرقٍ شتى على عزلها عن العالم الخارجي، بقطع أسلاك التلغراف، وقفل طرق الدعم بشتى أنواعه، وتكوين فرقٍ متنوعة تعمل على إزعاج الحاميات باستمرار، وتغضّ مضاجعها، لحين اكتمال التركيبة النهائية التي

يكون بعدها الانقضاض كاملًا ونهائيًا، بعد أن يتسرّب القلق والإحباط للحاميات التي تجمعت في مدينة «الدبة»، ويكمل مخزونها من الأغذية، ويستنزف مخزونها من الأسلحة والذخيرة، بالاستفادة من معرفة أهل المنطقة بدروبها ومخارجها، لزيادة كفاءة الحصار.

تم تعيين الشيخ «أحمد الهِدَي» بواسطة والي «بربر»، قائدًا لهذه العمليات، وبدأ في تكوين فرقه المنوط بها القيام بهذه الأعمال.

ولكن لم تكن لأهل المنطقة أي خبرة تكتيكية في الاستنزاف، ولم تكن لديهم روح إستراتيجية تتمثل في الصبر والعمل بعيد المدى، والتخطيط الدقيق، ووضع الخطط غير الآنية.

لم يتفهموا أن يكون لهم عدوٌّ معروف ومحدد المكان، ولا يهاجمونه لوهلتهم الأولى، إن كان نصرًا فنصرًا وإلا فالشهادة حياةٌ أخرى أشرف من السكوت على بقاء العدوِّ.

ولم يكن لهم حتى جيش محدد، معروف المهام، ذو عقيدةٍ عسكريةٍ ناضجة، بل كان جلّ محاربيهم من الصبية الصغار، عديمي الخبرة، وحتى بلا عميق معرفةٍ بالعدو، حتى أُطلق على الجيش «جيش المِردان» نسبةً لمنتسبيه من الصبية، الذين لم تنبت شواربهم بعد، ولأنهم كذلك من مناطق متعددة، كان يصعب جدًا أن ينضووا تحت راية قائدٍ واحد، يأتمرون بتعليماته، وينفذون أوامره، وكان بهم عجلةٌ بائنة للانتهاء من المهمة على وجه السرعة.

فقرروا الشروع في الحرب مباشرة، وعدم التقيّد بالخطط العسكرية طويلة الأمد، ذلك أنهم في الأصل ليسوا محاربين ولهم أعمالهم الخاصة، وحيواتهم الخاصة، التي لابدّ وأن يعودون إليها بعد الفراغ من مهمتهم، في دحر العدّو، الذي لا يقدرون حجم قوته على الشكل الصحيح، ولم يدرسوا أصلًا قدراته، وخططه التي ينتظرهم بها.

كانت الحاميات التي انسحبت باتجاه «الدبة»، قد تحصنت بالـ «قيقر»، و«القيقر» حصن ضخم مبني من الحجارة وله باب ضخم، يغلق من الداخل، وكانوا قد أعدّوا أنفسهم لحصارٍ طويل، بعد أن سمعوا بتحرك الجيوش باتجاههم، فتحصنوا جيدًا، ووزّعوا مهامهم، ورسموا خططهم، وجهزوا أسلحتهم النارية، استعدادًا للمعركة المنتظرة.

كان المحاربون الذين تم تجميعهم من سواقي الزراعة، ومن أعمالهم الخاصة وصغار الصبية تتراوح نسب أعمارهم بين 17 و18 سنة «المِردان» الذين كانوا يساعدون فقط في الزراعة دون أن تكون لهم سواقيهم الخاصة، كانوا جميعًا لا يملكون الأسلحة، بعضهم القليل جدًا يحمل بنادق، ولا يجيد التعامل معها، والبعض الآخر يحمل فقط العصي، ولم يكونوا يعلمون أنهم سيواجهون آلة حرب عملاقة تقضي على أضعافهم دون أي جهد.

كان بين من وصلوا إلى تخوم «القيقر» شيخ المناصير «النعمان ود قمر» والعمدة «ود كنيش» و«ود ضكير» و«ودمسيك» وشيخ «العامراب» وكان الشيوخ الكبار قادة للجيش.

تجمعوا جميعا تحت «حرازة ود قدّورة»، كان مشاركًا فيها من أهلك، «جدّك» الكبير، «جدّي» لوالدي، ربنا يسامحه ويرحمه «طه ود بشير»، وهو أول إمام لجامع البلد، كان حافظًا للقرآن، وهو من أوائل حفظة القرآن في المنطقة، وكانت مشاركة الناس في جيش الحملة يتم بالحمية وحدها، لإنو ما كان فيهم عسكري، كلهم كانوا مزارعين، لما جاهم المنادي كلهم هبّوا، وودعوا أهلهم وركبو حصينهم وحميرهم ولحقوا الناس.

.....

كان معاهم «علي ود ضحوي» و«مبشر ود صلاح» وولدو «محيي الدين» وكان قائدهم «المنصور ود صلاح» وكانوا كلهم رجال دين وحفظة قرآن.

.....

تعرف لما طلبوا من جدك «طه ود بشير» إنو ما يشارك في الحرب لإنو بقى راجل كبير وما بيقدر على الحرب والسفر، وإنو يرسل ولدو الكبير «أحمد» أبوي، تعرف قال ليهم شنو؟ قال ليهم «ما برسل بِكري – أي ولدي البكر – يتقطع ذِكري».

شارك جدّه بنفسه ولم يرسل ولده حتى لا ينقطع ذكره باستشهاد ابنه في الحرب، وهاهو ذكره لم يزل سائرًا، من «جدّي»، «لأبي»، وحتى الآن وأنا أعود لجدي من معتقلات النظام، قافلة من النضال تسير منذ سنوات وسنوات، وكل يوم يضج ذكرها، وذِكر أفرادها على العالمين، بينما استشهد «جدّي» في تلك المعركة ومضى واثقًا في استمرار سيرته في النضال والدفاع عن العرض والأرض.

زدت طولًا وأنا أستمع وأستمتع بالحكي ودلالاتـه، وأهتز من داخلي اهتزازًا، امتدادٌ طبيعيٌ «لجدّي»، على ذات الطريق التي مضى فيها جدوده، وحفظت الأرض أركانها وطقوسها وقوانينها ومفردات بقائها حرفًا حرفًا، وسطرًا سطرًا، وكتابًا كتابًا

القصة الأولى يا جدي إنو جدك حارب بنفسو وما خلّ ولدو يحارب عشان تستمر عائلتنا في النضال وسيرة الحق، صاح ؟

عفارم عليك، نجيض من يومك.

–

عند الحرازة، تجمّع الجيش كله، وانتظروا كل الجموع، اصطف قادة الجيش في المقدمة، تليت سور الجهاد، وصدحت النساء بأناشيد الحماسة، والفخر، حتى كادت الدماء تفيض في النيل، وانتصبت الهامات ترسم النصر الأكيد القادم، وبدأت مواكب التحرك نحو

«القيقر»، في المقدمة قادة الجيش وعلى الميامن والمياسر فرقة الموسيقى المصاحبة التي بدأت تعزف وتدقّ على النحاس، والناس تلامس رؤوسهم السماء، في زهوٍ وفخرٍ فريدين، يسيرون نحو حتف أعدائهم ، أو حتفهم، لا فرق.

وكانت تلتحق بهم من القرى التي يمرّون بها المشائخ والشباب والصبية، بخيلهم وجمالهم وحميرهم، وبعض الصبية الراجلين، يمشون على نشوة حماسة الكبار، لا يشعرون بالتعب وهم يتطلعون لأولى معارك حياتهم.

وما إن وصل الجيش لموقع الحصن حتى بدأ لتوِّه في مهاجمته، دونما خطة، أو تعليمات، فقط جموع تهجم على عدوٍّ يقبع خلف حصنٍ منيع، ويفتح أسلحته النارية في المهاجمين العزّل إلا من قلوب بِكر، وصدقٍ نادر، وإيمان بأن الموت شرفٌ، والنصر حلاوة، وأن الناقص من الحياة يكمله الموت العزيز، وأن الزائد من الحياة يتلفه الوصم بالجبن.

ولكن النار تحصد القلوب بأحاسيسها، وتفتك بالأجساد وإيمانها، وتأتي على الحياة غير المحصنة، فتعرّض الجيش في هجومه الأعزل، الانتحاري هذا لضربٍ شديد وإبادةٍ جماعية، ومضى الموت ينتشر في كل جنب، ويطلّ من كل زاوية، ويُقذف من كلّ ناحية، حتى استدرك الناس أن هذه محض قيامة، وليست حربًا، فوقف

اندفاعهم، وهدأت ثائرتهم، وتراجعوا عن خطوط النيران.

عاجلتهم النيران بخبرة الخطط العسكرية، فتراجعوا وتجمعوا مرة أخرى، أهدأ حماسةً، وأميلُ بالًا لسماع القواد، ورسم الخطط، وتجنّب حقول النيران تلك بطريقةٍ ما.

كلّفتهم الحماسة أرتالًا من الشهداء، وكلّفهم الحماس جهنم لم يتحسّبوا لها، فجلسوا تحت ظلال النخل يتحاورون، ومضى الجنود لزرع المزيد من الأمل والقدرة على الانتصار.

لا مناص من فتح باب الحصن، حتى تعود الحرب لمعادلتها الأولية، المواجهة، وحينها يمكن للشجاعة أن تغالب النار ويمكن لمطلق النيران أن يخشى من هجوم مطلق صرخات الشهادة التي تفوق نيرانه، ولكن كيف؟

كيف لهم أن يفتحوا باب «القيقر» المعلّق هناك في أعلى الحصن؟ وكيف لهم أن يصلوا إليه من الأساس؟ حيث إن «القيقر» أصلًا كان على منطقةٍ مرتفعة لا تصل إليها نيران القليل من البنادق التي يحملونها، وتحصد نيران اللائذين به كل من يحاول الاقتراب.

كان «النعمان ود قمر» شيخ المناصير، محاربًا قديمًا وقديرًا، عجمت المعارك والغزوات عوده، وأكسبته الأيام خبرةً ومعارف كثيرة، فأشار إليهم بفتح باب الحصن، وتعهد لهم بذلك، أحضر ثمانية جمالٍ نشطة، وأوقفها في صفين، وجاء بساق شجرةٍ ضخمة،

طويلٌ جدًا، بعد أن قطعوا كل الفروع وأبقوا فقط على ساقها الضخم، الذي تم ربطه بالحبال، ربطًا قويًا، بين الحبل والحبل مسافة متر أو تزيد، وجعل الساق تزيد بمترين على الأقل من جمال الصف الأول، من ناحية المقدمة، وتم ربط الساق الضخمة البارزة من الأمام على هذه الجمال، بقوا ليومين وليلة يجهّزون، ويرسمون، ويوزّعون الأدوار لفتح باب الحصن المنيع، واقتادوا الجمال وهي تحمل الشجرة الضخمة، ذات الساق الذي يبدو بارزًا في المقدمة بمترين أو يزيد، يتحركون في الظلام، فقط على أنوار فوانيس خافتة، حتى باتوا أمام باب «القيقر» بالضبط، ثمّ جعلوا حُرّاسًا على جانبي الجمال حتى لا تفرّ في اتجاهات متفرقة، إن باغتها الحصن بنيرانه، وفي لحظة الصفر التي حددوها، كان هناك آلاف الجنود خلف الجمال تصرخ فيها وتضربها بالسياط، والحراس على الجوانب يوجهونها باتجاه باب الحصن، فرّت الجمال من الصراخ والضرب خلفها إلى الأمام مباشرة، غير عابئة بالنيران التي انطلقت باتجاهها، ووصلت مقدمة ساق الشجرة المربوط عليها قبلها واصطدمت بباب الحصن ففتحته، وانطلق الجيش مكبرًا، في حماسته الأولى، ولكن جهنم كانت لم تزل تستعر وتنتظرهم على جانبي باب الحصن، لأن جيش الحامية قرأ الخطة ووزع مقاتليه على جانبي باب الحصن ببنادقهم، ومدافعهم، التي فتحت جهنم بارودها في الجميع، فحصدت أرواحهم، ونشرت

الذعر والخوف بين الأحياء، وأحالت أحوال يقينهم شكوكًا كثيرة، ففرّوا في كلّ اتجاه، وبدأت رحلة النجاة الفردية، بعد فشل رحلة النصر الجماعية.

استشهد الشيوخ، وضاعت عزائم الصبية، فانفرط العقد، ومضت رسائل النصر تتبخر في السماء، وأثخنت الأرض بالدماء والشهداء، والقلوب التي لم تزل تنزف أشواقها وأحلامها وأغنيات مجدها الوليد، ماتت العيون عن بصرها، ولكن بصيرتها طارت تحلّق حول النخل وبين أمواج النهر وفي سنا الحقول الخضراء.

- 4 -

كان «جدّي» وهو يحكي يتعرّق حتى لتقول إن سحابةً تتعهد رأسه، وقام من حينه واتجه صوب صندوقٍ خشبي عتيق، أطالعه منذ طفولتي في نفس مكانه، وكنّا ونحن صبيةٌ نتقافزً فوقه ونحاول تحريكه فيستعصى علينا، لم يكن أحدٌ يستطيع أن يحركه غير «عثمان السمين» ابن عمي ولكنه كان يخاف، ويقول لنا راجفًا:

قالوا فيهو جان.

فنجري بعيدًا عنه، توجّست خيفة حينما توجّه «جدّي» نحوه، ربما تلبستني قشعريرتي الطفلة تلك، و«جدّي» يمسح سيل العرق عن جبينه ويرفع الغطاء، يخرج سيفًا قديمًا، احتلّ الصدأ أركانه، وكأن به بعض دماء يابسة، مقبضه ملفوفٌ بقطعة قماشٍ بالية، متسخة، خشنة، تبدو سوداء ولكني لم أتحقق من لونها الأول، جاء ووضعه بجانبي، وعاد للصندوق فأخرج صِدارةً سوداء، وعمامةً بيضاء ليست ناصعة ولكنها تبدو جديدة نسبيًا مقارنة مع قطعة السيف، ملفوفة بعناية شديدة، يبدو من قطر دائرتها أن لصاحبها رأسًا كبيرة، تلتف على

طاقيةٍ خضراء قاسية الأطراف، وضعها حيث وضع السيف وعاد للصندوق، أخرج منه مسبحةً خشبية، تتألف من تسع وتسعين قطعة غير متناظرة، وغير متشابهة، بعضها دائري، وبعضها أقرب للمربع، وبعضها بين المربع والدائرة، مربوط على مقدمة خيطها خاتم، منقوش عليه بحروف مهملة «طه ود الحاج بشير» على قطعة فضة مربعة الشكل، مكتوبة من الشمال إلى اليمين، بذلت مجهودًا جبّارًا حتى أتمكن من قراءتها، تبدو وكأنها لختمٍ وليست لخاتم.

دي عدة الحرب لجدك «طه ود بشير»، بعد انتهاء المعركة بما يقارب الشهر جاء إلى «أبي» رجل من المناصير اسمه «كامل» وسلّمه هذا العتاد وقال له، دي أداني ليها أبوك قبل ما يموت، قالك العمة ما تقع في الواطة، والسيف ما ينكسر، والخاتم ما يبصم على باطل، والسبحة ما تنسى التسبيح.

أنا أحملق أمامي بانشداهٍ كبير ولا أتكلم، فقط أتفحص وجه «جدّي»، وعتاد «جدّه»

ومن يومها، ما مرق أبوي ولا مرقت أنا لمناسبة تلم الرجال إلا بالعمة اللفاها أبونا الحاج «طه الإمام»، وما انكسر سيفو تب، وختمو ما بصم على باطل، وسبحتو ما نست التسبيح، وبعد أنا أرقد أبوك عارف يسوي شنو، دحين أنت كمان تعرف.

وبنفس الهدوء، والعرق المتصبب، أعاد «جدّي» عدة الحاج «طه

الإمام» إلى الصندوق، وجاء ليجلس في مكانه ويواصل الحكي.

فرّ الناس في كل اتجاه، وكان الشيخ «أحمد الهِدي» قد أصيب إصابةً بليغة، فتحامل على نفسه وانسحب من أرض المعركة، وظل يرقد على فرسه وهي تجري بلا هدي، حتى يئست من الوجهة التي تتجهها، إلى أن قابله أحد الهاربين، فعاجله محاولًا إيقاف النزيف، ولكنه جاء متأخرًا، فوجّه الفرس باتجاه دياره ومضى من خلفها، فرسان يحملان حلمًا واعدًا وآخر ذابلًا يغوص في لحدٍ من يأس، رأسٌ تتوق لغدٍ يسندها، وأخرى تبحث عن ماضٍ تموت إليه، روحٌ متطلعةٌ لحياةٍ قادمة، وجسد مثخنٌ حالمٌ بميتةٍ كريمة، ظهر الفرس مصبوغًا بالدماء الحارة، تسيل على السرج وفرشة الحرب المصنوعة من جلد البقر التي توضع على السرج، أنين متقطع يصدر من الشيخ ربع الحي، وتطغى همهماتٍ لا تكاد تفهم من بينها إلا كلمة «الله» فقط، كان دمه قد تصفّى تقريبا، ووهن نبضه، وغشيته غيبوبة، أغمض عينًا وأبقى الأخرى تتملى في هوان الأرض تحته والفرس تسرع به صوب محط رأسه الجديد، وحين تيقّن مرافقه من استشهاده، أوقف الموكب وأقام عليه الصلاة، ودفنه، في خلاء بلدة «الباسا» ليس بعيدا من «حرازة ود قدّورة» التي انطلقوا منها للقتال. وصار موضعه مزارًا.

«الشيخ الهِـدَيْ» كان ولي، وَلِي بالجد، قالوا ساعة التحركو من «الحرازة» ماشين على «القيقر»، قالهم يا رجال، نحن ماشين للموت،

والموت الزي دا ياهو البيوصلنا طيبين لي ربنا وحبيبنا النبي، أنا ماني شايف غير النصر، إن متنا نصر، وإن عشنا نصر، وأنا إن متّ داير أندفن جنب الحرازة دي، وما بغلّبكم تجو شايلني من هناك لغاية هنا، بجي بي فرسي دا، وضرب فرسه على رقبته بيده وهو يبتسم.

.....

آها سبحان الله فرسو جابو لغاية «الحرازة»، من محل رقدتو دا و«الحرازة» ما في مشية عشر دقايق.

وانتهت الحرب، وبدت الحرب التانية، حرب استعادة الروح والعزيمة، لكن ما حكيت لي القصة التانية، أنت قت عندك قصتين.

سمح، تراك مركّز معاي، القصة التانية إنو المحاربين ديل ساعة رجعوا، محبطين، وقنعانين من النصر، ومحبطين، كانت حالتم يعلم بيها الله بس، فيهم الجا مقطّع، فيهم الجا مكسّر، فيهم الجا نصيح، ولكنه يتمزّق إحباطًا ويأسًا وحزنًا، وكانوا حزنانين على أهاليهم الاستشهدوا ديل، لإنو الحرب ما كانت حرب عادلة، ما في راجل قصاد راجل، في نيران قصاد قلوب مفتوحة، دروع يلبسونها ما كان عندهم.

وحينما عاد بقايا الجنود، بإحباطهم وعجزهم وأحزانهم وفجائعهم تلك، قابلهم الشيخ «حامد» شيخ الخلوة، والذي ينحدر من أسرة يسمّون بـ«الوراريق» احترفوا مهنة التدريس في الخلاوي، باتوا

يأكلون ويشربون ويتسابقون في الحديث بنعمة الله، وهم يوزّعون على الناس مهامهم وينوبون عنهم في كل ما يتصل بالرب، وخطب فيهم، وحفزهم لمعركة النصر الوشيكة، وأنه رأي نصرهم رأي العين، وأن الله استدرج عدوهم لهم ليكون حتفهم في «الضيقة»، وهي منطقة حصينة كذلك تشابه «القيقر» تقع بنواحي «الأراك»، وإنه حين علم بهزيمتهم هنالك استوثق من الرؤية التي ظلت تأتيه في النوم، بأن النصر في الضيقة، وأن الملائكة يرابطون على حدود الطريق الواصلة إليها للقضاء على أعداء الله، فتحامل الرجال وتحصّنوا بـ«الضيقة»، وكانت جيوش الحامية قد خرجت تطارد الفارّين من الجيش وتحرق القرى، وتقتل النساء والأطفال وتمثّل بالرجال والشيوخ، فتدافع الناس إلى الضيقة، يتقدمهم «حامد الورّاق»، وحينما وصلت مقدمة جيوش الحامية، وأعملت نيرانها في الحجر والشجر، كان «حامد» أول الهاربين، وترك الناس لمصائر جهنمهم القادمة، وفجيعة انكسارهم تحت وطأة انسحاب جيش الله عنهم، لم تستقبلهم السماء بجحافل جنودها تحارب عنهم، ولكنهم جنود الحامية الذي سعوا في الأرض تجهيزًا وإعدادًا، لم تتدافع الملائكة تحرر لهم أرضًا لم يبنوا لها جيشًا ولم يقيموا على أطرافها حصنًا، ولم يبرعوا في استخدام السلاح للذود عنها، فقط يشترون تذاكر الجنان من متاجر «حامد» البائرة، فحُرقت الأرض بزروعها، واغتيل الأطفال والنساء، ومثّل بالرجال والشيوخ،

وبدت لهم أهوال القيامة مجددًا.

مرت أيامٌ، وشهور، قبل أن يستعيد الناس بأسهم، وتبدأ الحياة في مزاورتهم من جديد، نزل الهاربون إلى الجبال من جبالهم، وعاد النازحون مع النيل بمراكبهم، وبدأت كل أسرة تتلمس أفرادها الأحياء وتفتح بيتها من جديد، والتأمت جروح القرى على طول النهر، على حنقٍ بالغ، وغضب كبير، من عدو جبان، لم يخلق حربًا متكافئة ليظهر معدن رجولتهم، وإنما سطا عليهم بالنار يطلقها من حيث لم يحتسبوا، فيردي الناس في حماستهم، إلى الهلاك ومواجد النيران، ولكن حنقهم الأكبر كان على «حامد» ورجاله الذين زينوا لهم الحرب، وأيقنوهم بانتصارٍ لم يرووا هم من مفرداته مفردةً واحدة، ليقيسوا عليها ويتبينوا أمرهم، وهم العائدون من تجربة ما زال دمها يغلي في عروقهم، وحينما فَتحت فيهم جهنم أبوابها جميًعا، أقنعوهم بأن جنان الله تنتظرهم على أرض «الضيقة» لتلقف كل جهنم يأتي بها جيش الحامية، وهربوا منذ أول طلقة، حشدوهم للإبادة، وفرّوا، فكان أول قرار اتخذوه بعد التئام شمل القرى في قراهم، طُرد «حامد»، وأهله جميعًا، فمضوا يتلمّسون قرية تستضيفهم، ولكن كانت كل القرى تسيّرهم باللعن والشتم، حتى خرجوا من كامل حدود البلاد، التي عادت إلى ربّها الذي تعرف، حليمًا قديرًا داعيًا للأخذ بالأسباب، سهلًا بلا تعقيد، أهلًا بلا كثير خُطب، مانحًا للمانحين الجهد والعرق

واليقين، مانعًا للمانعين السلم وروح الحياة الباهرة، قلت من بين عرقي وخفقان قلبي بآهةٍ بالغة ....

– دي القصة التانية

أي يا ولد يا هميم، دي القصة التانية، قوم نمرق على أهلك ديل لا يبقو كمّلو باقي الخروف دا

أجبته ضاحكًا يا «جدّي» نحن الخروف أصلًا ما خلينا فيهو شيء غير الكراع الخليناها معلّقة ديك.

والله الكراع الخليناها معلقة ديك تلقاهم انتهوا منها، قوماك، ديل ناسي وأنا بعرفم. قالها وهو يمسح العرق عن جبينه ويضحك، ثم نفض المنديل وهو يمسكه من أطرافه بيديه، وعلَّقه بأعلى الباب بعد أن فتحه، ثم خرجنا.

- 5 -

لم يمض على ذلك اليوم شهر، حتى نام «جدّي» في غرفته تلك، قرب صندوق «جدّه»، نومته الأخيرة.

نام بعد أن أيقظ فيّ وفي «أبي» كل مصابيح الكون.

نام وقد أعددتُ «ابتسام» لمشهد الصندوق وما يجب أن تقوله لـ«سيفنا» الصغير، وحفظتها الدرس تمامًا، بعد أن جربتُ عمامة جدي «طه الإمام» على رأسي، وختمت بختمه على مواصلة السير، وهززت السيف لم أخشَ بقايا الدم عليه، ولا قماشته الخشنة على يدي، ولا روائح التاريخ العطنة على أفكاري.

نام «جّدي» ولم يعد الصندوق مخيفًا بالنسبة لي، ولم أعد أستشعر قشعريرة طفولتي من كلام «عثمان السمين» عن الجان وقصصه التي تنام داخله، فالصندوق يحوي على كونٍ من الحياة يتركه الموتى الذاهبون إلى الربِّ في عليائه الأبدي، لنا على الأرض المهترئة، وكنزٍ من الدروس تتبدى كلّ لحظةٍ وكلّ حين، فنقرأها وكأننا نقرأ منشورًا كتبناه بأيدينا، ووزّعناه على شوارع العالمين الضاجّة.

نام جدي بعد أن غاص رأس «سيف» الصغير في عمامته، وهو يصرّ عينيه من خشونة الطاقية القاسية، ويلعب بالختم على يديه ليتعوّد رويدًا رويدًا على قوانين البصم به.

كان رأس «سيف» الصغير وهو يغوص في عمامة أجدادي، يبدو لي كقصيدةٍ لم تبحث عن خاتمتها مطلقًا، وإنما مضت مفتوحة تجاه جديد المعاني، تتلبسها على كل حال، رأسٌ صغير تغوص، فتكبر في قوافيها الحياة المشرقة القادمة، وكلما يكبر الرأس تضيق العمامة، حتى تخلعها معادلة الموت الصادمة، فتتلقفها رأسٌ صغير أخرى، يكمن في نموّها داخل العمامة سرّ الحياة، ودروس الخلود، وتنهض قرب أذنيها حاسّة جديدة لا تتأثر بحكّة الطاقية القاسية، ولكن، تحوّل أكولتها لسلسلة البقاء الأبدي تلتفّ حول جيدها كأبهى ما يكون الشال، تحت العمامة المحكمة.

أغنيات الحنين

- 1 -

السرير غائرٌ في اللحاف
والغرفة فادحة البياض تقتلني

بين أصابع قدمي رعشة ما، أحسّها لأوّل مرّة، كأن حقلًا من الشوك ينجز مشروع كحته في شراييني.

أطالع بنصف عينٍ أصابع قدميَّ وأحاول تحريكها ولكني أفشل تمامًا، تبدو وكأنها في جسدٍ آخر، لا تستجيب لي، زرقتها الباهتة سافرت بي إلى عوالم من رحيل.

بجانبي «ابتسام»، ودمعها المتهاطل الذي لا تكذب سحائبه أبدًا، وعلى كرسيٍّ صغير ينشغل «سيف» الصغير عنّا بألعابه.

أجهزةٌ تعمل بصمت، وأخرى لا تسكت أبدًا، ترقد خلفي وتمتدّ أسلاكها من فوقي إلى قاعدة السرير الخلفية، تحيط بي الأسلاك، السرير كأنه غرفة عملياتٍ حربٍ كونية، كله يتحرك، ويتحدث، ويعمل، حتى الهواجس التي تحيط بي لا تكاد تركن لنومةٍ عابرة أو لغفوةٍ مباغتة، دمي وحقول الشوك يستبيحان شراييني.

أقاوم من أجل دمع «ابتسام» الحارق.

«ابتسام»؟ حين تحوّل الأيام الاسم إلى ضده!!!

أقاوم من أجل وعد «سيف» الكبير بالمقاومة والنضال، حتى وإن اختلف الملعب، وتبدّلت الأسلحة، وتغيّرت الخطط.

أقاوم من أجل ضحكة «سيف» الصغير البريئة، يمد إليّ بألعابه

بابا شغلا لي

ياولد أبوك تعبان جيبا أنا بشغلا ليك

لا لا يشغلا لي أبوي... ويقطّب حاجبيه، تكاد تقفز من بين عينيه بكائية سنوات طويلة.

أتحامل على موتي وأمسك باللعبة رغمًا عن كل الأسلاك وأشغلها له، تلمع عيناه في دموعها، ويكاد أزيز لعبته يقطع يدي وأسلاكها فتخطفها «ابتسام» وتدفعها نحوه، ولكنه يأخذها بنصر بالغ وينشغل بها عنّا.

يا «تاج» خليك في سريرك... ولدك دا مشاغب وأنت تعبان

يا «ابتسام» كلها ساعات ونمشي خلينا نقضّيها معاهو كويس... بكرة تبقى ليهو الساعات دي بس.

كنّا هكذا في كل حوار بيننا نذكر أسماءنا، هي تقول يا «تاج» وأنا أردّ يا «ابتسام»، وكأننا نحتفي ببقايا محبّةٍ عظيمةٍ ترقد خلف اسمينا.

تنفجر «ابتسام» في بكاء قاتل، يترك «سيف» الصغير لعبته ويبكي

مع أمه، دون ما يسألها عن سبب بكائها، وأنا ممددّ بين أسلاكي أتقي البكاء بإغماضة.

ياه... هل تذكرين رسالتي تلك يا «ابتسام»؟ حين دفنتها في ثياب أمي وهي تزورني في المعتقل... يا لأمي... نزفت حياتها ومضت... ولكني سأوافيها بأخباركم قريبًا...

–

حبيبتي

مثل شجرةٍ نامت بين أغصانها طيور الأغنيات، وتغطّت بألحانها السماء

مثل حقلٍ أغدق على الدنيا نسمة مختالة، وتواشيح هديل

مثل طفلين أودعا أيديهما نصاعة المستقبل وتحسسا نظرات بعضهما، يرتشفان الوعد المتقافز فيهما.

مثل طائرٍ جرحته مواسم الهجرات الفادحة، فقرأ على عشّه سيرةً خيالية الأبطال، واحتسى أحزانه ومضى لهجرةٍ جديدة.

مثل نبتةٍ تشرّبت مياه عذوبتها على مهل، وطرحت للكون محصولها الخرافي من الندى

مثل عالم بينه وبين عالمي بحرٌ من خوفٍ ورعشاتٍ مجنونةٍ وحلمٍ يتلصص الذّاكرة وأغنية يائسة

مثلي أنا تمامًا وأنا أكتب إليك من سجني

من سجني؟ يالهذه الكلمة الشاذة!! هو ليس سجني، هو سجنهم، وسوف نعيده لهم، لا لنسجنهم فيه بالمثل، ولكن لنسجن فيهم أوهامهم وخرافاتهم البالية، وتجارتهم البائسة بالحياة والناس والدين.

ثلاثة من الرفاق ينامون، لا أدري على أي حلم، وعلى أي وسادة، وعلى أي نوم، يقتسمون الزنزانة الصغيرة، يالنسبية هذه الكلمة، الصغيرة، عرض متر ونصف في طول مترين، يعيش بها أربعة أشخاص منذ أكثر من عام، ليس لهم أكثر من مساحة الجسد، ولكن ليس هناك غير هذه الكلمة للوصف، الصغيرة، ينام رفاقي، النوم آفة الصحو يا حبيبتي، كلما ننام نصحو أكثر قلقًا، وأكثر خوفًا، وأكثر حزنًا، ولكنا لا نملك إلا أن نفعله...

«قاسم»: تحمرُّ عيناه قليلًا كل ليلة فيتقينا بالنوم، هو يا ابتسام لم يرَ ابنته سوى ثلاثة أسابيع، لم يقوَ على أن يحملها ويغنّي لها أغنياته الرهيفة، لم يستطع أن يقتلعها من جذر أمها ويخرج بها للعالم، حديقة منزله اليابسة التي ترتع بها دجاجاتٌ منزوعة الريش، «دكان» الحيّ الغارق في رائحة الفول، تمتد أمامه تلال من الفحم تزيد قتامة الشارع، شجرة النيم التي تظلّل محطة الباص منذ آلاف الشموس، لم يستطع أن يريها أصدقاءه الذين داخوا السبع دوخات ليحضروا «العرق» ويحتسوا أحلامهم في ليلة سمايتها، يحتسون، لا يشربون،

«العرق» الذي يطلي أجسادهم برغبة الأرواح في التحليق، يحلّقون، بعيدًا بعيدًا، يمرُّون على أشجار المدينة، على غيمها الأليف، يكسرون زرقة سمائها بأجنحتهم الوارفة، يحتسون لا ليغيبوا عن وعي واقعهم ولكن ليعوا غيابه عنهم، ثم ينطفئون وهم يرون ابتساماتهم تيبس على شفاههم من فرط التحليق، الأصدقاء الذين ينزفون جيوبهم ليوقفوا نزف لحظة دامية، ويستعدون لاقتسام القادم من خيبات، كلّ شيء في هذه المدينة غير قابل للصحو، كلّ شيءٍ في هذه المدينة قابلٌ لكلّ شيءٍ إلا الصحو، الخطوات المزروعة في الطريق كلها سكرى، ليس من خطوتين تقعان على نفس الخط، الخطوط الملتوية تؤسس لمدن السُكر، الباصات العامة تئنُّ أنينها القاتل في الآذان، ورغم حرّها الفادح، يسترق الشباب اللحظات بأياديهم العابثة تحت المقاعد، تسكر الأخلاق في هذه المدينة، خيرٌ لها أن تسكر وإلا فستموت، تنتظر زمنًا ما، ربما تمارس فيه صحوًا تحلم به، حينما تخرج الأخلاق من دواخلنا وتظلّ معلّقة تلوّح للمارة، فثمة وطنٌ مغتال، حينما تحرك عينيك في فضاء النظرات، بابتسامة باردة، وتدفن يدك بحرارةٍ في تنورةٍ تقاسمك المقعد، تنشغل هي أيضًا بكتابٍ تبدو وكأنها تحفظه وهي غارقة في حميم الونس، فهناك قشرة صلدة تفصل بينك وبين الروح، هذه المدينة متسخةٌ جدًا ،رغم بياض مبانيها، وأصوات الصلوات التي توقظك رغمًا عنك عند كل فجر، وتنيمك

حين تصحو البلاد للسرقة والقتل، هذه المدينة تبيع لحمها من تحت الطاولة، فتبدو في الوجوه ندبةٌ ما، تطالعك من كل الزوايا، ألف عامٍ وعام غير جديرات بإعادتها سيرتها الأولى، حينما كانت تغنّي، وترتّل، وتسكر، وتصحو، وتصدق جدًا، في أمان الله والحياة، قبل أن تغلّف وجهها بذقنٍ كاذبةٍ خاطئة، أو خمارٍ مهتوكٍ لعوب، تباع من تحته البلاد والأرواح والأجساد.

حبيبتي

أظنّني قد شطحت.. لا بأس فأمر هذه المدينة يهمّني مثلك تمامًا، هي أمّي، ليست أمّي فقط وإنما هي حتى أمّ أمّي، وأفضل البرّ أن نحدثها بسوءاتها لتكفّ، ونغنّي لها غناء وسامتها السابقة لترقص.

أعود «لقاسم»، هذا «القاسم» يا «ابتسام» طيّبٌ وجميل، ينشغل هذه الأيام بمتابعة وضع المعتقل الصحي، المعتقل؟ هل قلت المعتقل؟ هاهاها، هذه الكلمة الفارهة لا تعدو كونها مائة معتقلٍ، في ست عشرة زنزانة، متسخةٍ، عفنةٍ، باهظة الحرّ، وفناءٌ صغيرٌ تنبت فيه سدرةٌ محتارةٌ بين الموت والحياة، لملمت أوراقها كلّها، واستعدّت للحياة بالأشواك، وحمّام واحد، حمّام واحد فقط لمائتي عين، وألف أذنٍ وأنف، غرفة صغيرة، أو شبه غرفة، تتكون من أربعة قوائم خشبية، تحيط بها ألواح من الزنك، لا يزيد ارتفاعها على المتر، تستر فقط المنطقة من أسفل الركبة إلى منتصف الصدر، هذا لأن الله قد

أنعم علينا بقامةٍ قصيرة، القامة القصيرة الممتازة، كنتُ كلما دخلته حمدت الله كثيرًا على قصر قامتي، حمّام واحدٌ ياحبيبتي يستر عورة مائة رجلٍ وألف قلبٍ من الحسّ والحياة، أرأيت كم هي صغيرةٌ عورة المائة رجل؟ وكم تبلَّدت أو كادت أحاسيس ألف قلب؟ نترك بداخله عن طيبٍ، بقايا الصابون للآخرين، هناك من لا يملك إلاّ سرواله الوحيد وقميصه المتهالك، كنّا نتقاسم معهم حتى الملابس الداخلية، وكنّا نقاسمهم دمعًا لم يسل مطلقًا، ونقتسم معهم النكات المعادة والسخرية والأغنيات، حمّام واحدٌ يحتمل غناء مائة فمٍ ومِزَق حياء ألف نفسْ، وخِرق ألبستها البالية، في طرفه جدولٌ صغيرٌ يصرّف المياه، يمرّ بالمراحيض، تتآلف في أجسادنا رائحة البول والمياه تآلفًا يجعل فكرة الاستحمام، هنا، أتفه فكرة أُنتجت في الكون، والمراحيض، ستّة فراغاتٍ نتنة، واحدها مرحاض، ليست بها أبواب، ليست بها حياة، فقط الموت وروائحه التي لا تطاق ولا توصف، ليس هناك كلمة واحدة قمينةٌ بوصف حالتها، كلما تقضي حاجتَك فيها، تقضي حاجتُك وروائحها عليك، والظلمة، والخوف، والقهر!!

تتعرّى وتوزّع عورتك على مائتي عين، كلّ عينٍ أدماها عُهر الواقع فباتت لا ترى.

أول أيام لي بالمعتقل بقيت لقرابة الأسبوع لا أقترب منها، ثم دخلتها أولَ مرة ليلًا، هناك ائتلافٌ تافهٌ بين الظلمة والرائحة،

فالليل هو الأب الشرعي لكل هذه العفونة، والحشرات التي تتقن فن صناعة الخوف والقلق، بعدها حفظت قانون الزنازين، تَجَاسرْ على احتياجاتك كلها نهارًا، لتتجاسر على نفسك ليلًا، خذ من ساعات صحوك نهارًا لقرون خوفك ويأسك، وروائحك ليلًا..

و«قاسم» مشغول بالوضع الصحي، ربما لأنه طبيب، مع أنه ليس الوحيد ممن بقوا بالمعتقل، كتب مذكرة وأراد تقديمها أثناء المرور الأسبوعي ولكن «صلاح» سحبها منه ومزّقها

يا دكتور ديل ما بغيرو ليك حاجة.. واحتمال يزيدو الشي الحاصل دا... وكمان حا يعرفو إنو عندنا قلم وورق وحا يشيلوهن

يا«صلاح» خليهم يشيلوهم لكن الوضع دا لا يطاق

أيواااا لا يطاق... طيب هم دايرين شنو أصلًا؟ ما دايرينو لا يطاق، اصبر يا دكتور... والمرور الجاي قول ليهم عندنا مطالب دايرين قلم وورق... وشوفم يقولوا شنو

وتململ «قاسم» في لحافه المتسخ، وتفوَّه بكلماتٍ حارقة، واحمرّت عيناه، ونام، ومنذ أكثر من شهرين يطالب بالورق والقلم لكتابة المذكرة، ويجيبونه بابتسامات سخيفة، أنصع منها كثيرًا روائح المراحيض، وظلمتها.

أنت يا دكتور ما عندك شغلة؟ كل مرّة داير قلم وورق... أنت قايل نفسك في الهيلتون؟ ونحن فاضين ليك يعني؟ بلا قلم بلا ورق

بلا فلسفة شيوعيين معاك... ما عاجبك طق رأسك في الحيطة الجنبك دي ما تعمل لينا صداع.

أنا بطالب بي حق قانوني.

قانوني؟ وضحك الضابط ضحكات حاقدة ومبتذلة وردد كلمات مبهمة، ومضى

حين خروجهم أخذ مدير السجن «قاسم» جانبًا ووعده بالقلم والورق ومعالجة الوضع الصحي، ولم يعد بعدها مطلقًا.

آها القدرت عليها غطست حجر اللواء المدير... كان مرة مرة بيعمل لينا حاجة.

ياخي يعمل ليكم حاجة شنو؟ آها عمل شنو؟

كيف ياخي... أنت قايل إنو الناس ديل ياهم من جينا؟ كنا ميتين وخمسين... شال مننا مية وخمسين وداهم زنازين الغربيات... والله كنا بنستحم اتنين اتنين... أنت اسع في نعمة... والله يا«قاسم» يوم من الأيام في معتقل بال على نفسه لإنو انتظر المراحيض لأكثر من خمس ساعات وظلّ يبكي إلى أن أغمى عليه... ومن يومها غرق في وحدته لحين خروجه.

–

«ابتسام»

حين تنامين افتحي نافذة الغرفة

أحلم أن عصفورًا ما، سيراقبك وأنت تتقلبين بين أشواقك وانتظاري، وسيغنّي لحنًا جديدًا

حين تذهبين للجامعة، اغسلي كلّ شجرةٍ فيها بضحكاتك الناعسة، وارقدي على العشب الذي طالما رقدنا عليه، لن تسقط عليك السماء، كما تتساقط علينا هنا يوميًا، وأنت تطالعينها برغبةٍ، وقلق، ولكنها ستتكسر رحيقًا ناعمًا، يغسل الفضاء حولك بسكون غامض، خبري «عم سيد» أني أفتقد فوله البائس وتعليقاته الساخرة حد الطعن، خبّريه أيّ عشقٍ بنيناه بقربه، وتحت طائلة شايه العجيب، الشاي الذي يُولد ألف مرّة من برّادٍ واحدٍ، وخمس ملاعق شاي تدخله صباحًا، ورغم ذلك يظلّ محتفظًا بلونه إلى آخر ساعات المساء، متواطئًا جدًا ذلك الشاي، ولا تملك إلا أن تقول «والله دا لا شاي ولا حاجة» لا تستطيع أن تتشاجر معه، لأنك أصلًا لم ولن تدفع ثمنه، خبّريه كم أحنّ إلى خصوماته مع البنات الجميلات، «عم سيّد» دا عفريت، يحببنه كلهن، يعرف كيف يزرع الألفة بينه وبين الآخرين، خاصمني مرة، لأنني أنهيت شجارًا افتعله مع «نسرين» ولم تعد تجيئه، كان يفتعل الشجارات التي تنتهي باعتذار وسندوتش وعلاقة ، تعرفينها؟ «نسرين» الحمامة؟ حمامةٌ هذه البنت، ستغيرين؟ طقّي ولكنها حمامةٌ تسكن برجًا آخر من ذاكرة الماضي، هاهاها.

تغطّي جيدًا يا حبيبتي، أعرف أن الجوّ ليس باردًا، بما يكفي للغطاء، ولكن أصابع النسيم مشبوهةٌ هذه الأيام، الهواء الذي يأتيكم، يمرّ عبر محاكم النظام العام.

كيف «أمي» و«أبي» ؟

أنت من سيسكن قلبيهما... لا تدعي الحسرة تأكلهما... أنت من ستزرعين سهول غيابي بخضرتك الخرافية... لا تتركيهما يفكّران في زيارتي... آخر زيارة كنت أرى كم من الأسى يحتقن بين أجفان «أمي» رغمًا عن محاولات التماسك التي كنت أبديها... والنكات التي حكيتها غصبًا عن أحوالي جميعها... ثم إن الزيارة قاتلة لنا جدًا يا حبيبتي... آخر زيارة «لسيف» أسكتته ثلاث ليالٍ كاملة وطوّحت به وبتماسكه... أخبره الحرّاس أن يستعد لزيارة فوزَّع أعضاءه على المائتي عين وهو يقضي حاجته ويستحم ويحلق ـ مجازًا ـ ذقنه بموسٍ مستعار حلقت لأكثر من نصف المعتقلين ولكنه ما زال يحتفظ بشكل الموسى... غيّر ألحان الأغاني كعادته وهو يترنم برغبة جارفة في اللقاء... لبس أحسن ملابسنا ووقف طويلًا قرب باب الزنزانة يمرر يديه علي حاجبيه وشاربه في آخر لمسات الأناقة... ويضع رجله على جدار الزنزانة تتقافز الفرحة من عينيه في حياء طفولي... قابل «أمه» و«خالته» و«أخيه» واستراح كثيرًا وهو يودّعهم ممسكًا بلفافة صغيرة أحضروها له معهم... اقتادوه بعد ذلك، لداخل المبنى وهو

يرمق بطرف عينيه أبيه وأخواته وأصدقاءه ومنزله وغرفته كلّها تعلق بخطوات أخيه وهو يخطو صوب البوابة الضخمة المكتظة بحرّاس يوقّعون بنظراتهم القاسية على دفتر حضوره... أدخلوه حمّامًا قديمًا معطلًا... فادح السوء... تطفح فيه كل قذارات الكون... أغلقوا عليه الباب ومضوا ليومين كاملين... هو حتى الآن كلما حاول أن يصف ذلك الحمّام أفرغ ما في جوفه... الاستفراغ وحده من يرسم الصورة يا حبيبتي... كانوا يفتحون الباب حين كل وجبة ويدخلون صحنًا صغيرًا ورغيفًا وكوب ماء... ويزرعون الخارج بقهقهات جبانةٍ، وخائبةٍ، ويمضون... يظلّ يستفرغ لحين موعد الوجبة القادمة... حينما أعادوه لنا كان شبحًا... شبحًا سيئ الرائحة... لم تستطع كل محاولاتنا امتصاص موته الباهظ حينها... تجاسرنا على ملابسه وأخرجناها من جسده المتهاوت وقذفنا بها خارجًا... لكن الحرّاس أعادوها لنا وهم يقهقهون... ويحذرون من تكرار العملية حتى لا يكون مصيرنا كلنا مثله... ولم نستطع أن نحفر وندفنها فقذفنا بها في زاوية من الزنزانة... وبقي لأسبوع كامل يفرغ جوفه وإمعاءه كلما جاء موعد الوجبة... «سيف» يحترق الآن وسط أكوام القهر اليابسة... الزيارة قاتلة يا حبيبتي...

«ابتسام»

لحنت أغنية جديدة كتبها سيف

«بيني والشوق ضي عيونك
وفيِّ منّك حاجة لسّع
لا خطاي التايهة كونك
لا خطاك رضيانة ترجع»

.....

أغنيها كل لحظة... طبعًا كتبها «لعبير»... ستقتله هذه التافــه... هذه البليدة... يكتب فيها كل دقيقة وترحل عنه كل لحظة... لم تزره هنا نهائيًا... وهو في كل مرّة يجد لها عذرًا

أنا قلت ليها ما تجي... التافهين ديل ما بيخلوها.

تعرف «عبير» دي لو جات هنا وشافتني بتموت... عشان كدا أنا وصيت «أمي» إنها ما تجي

كانت مصرّة على الجية لكن الحمد لله «أمي» منعتها.

كان يكذب... عمره كله يكره الكذب... وصدقه وحده من أدخله هنا... ولكنه كان يكذب لها وعنها... أخبره «عمر» أخوه أنها قالت له:

سلّم على «سيف» وقول ليه معليش ما بقدر أجيك في مكان زي دا...

أحسن حاجة عملتها أنا ذاتي مادايرا تجيني هنا...

لكن شيئًا ما جرح طائرًا في خاطره، فهتفت عيناه دموعًا لم نرها...

ولكنها سالت... لم يستطع محوها من أعصابه بادئة التلف وصالحها رغمًا عنه... هو يعرف أن شرخًا سكن جدران حبهما... إن غيابًا عشّش بين أغصان شجرتهما... إن موتًا لفّ خاصرة سنين حبهما الذي كانت تحكى عنه كل أشجار الجامعة، ومقاعدها ومبانيها... لكنه كان وما زال يستمدّ منه القوة في مقابلة آلام المعتقل.

تعرف يا «التاج»... أنا لو كت دخلت المعتقل دا قبل أعرف «عبير» كت متّ زمااااان

يا سيف يا خي خليك من أوهامك دي... «عبير» دي ما شغالة بيك... يا خي اتلفت لي رقبتك شوية... بعدين الزولة دي...

خلاص خلاص... أنت ذاتك ما زول يتكلموا معاهو... سرح قليلًا... تتحاوم الغرفة بعفونتها في كرة الدمع البادئة... يشعل سيجارة بعصبية زائدة ويتحرك نحو زاوية في الزنزانة... جعلنا منها خزانة لملابسنا القليلة وعلب اللبن والمربّى التي يجلبها لنا بعض السجانين بأضعاف ثمنها... وأخرج منها وريقة ملفوفة في سروالٍ بالي...

دي مذكرات الجامعة... اقرأها واقفل دينك دا عليك... وأشار بيده إلى فمي.

الخميس 1987/ 00/ 00

قابلتها...
تلبس فستانها الوردي...
تلبسني غمازتيها حين تضحك...
ليتني أعرف كيف أغزل ضحكتها شالًا في هذا الخريف...
إذن لاستمتعت الأمطار معي...

لماذا تمنيت قضم إصبعها اليوم وهي تخرج قفازها الأسود قربي وتمسح يديها وتشتكي من الحر بالخارج... كنت أجلس على جذع الشجرة العتيقة... كانت تجلس على مقعد صغير حجزته لها منذ أن حضرت... الجامعة تغرق في لون فساتين البنات البني... كل البنات يخترن اللون البني... أو دعني أقول «السوق الشعبي» هو الذي يحب اللون البني... لأن «السوق الشعبي» في هذه البلاد هو من يختار لنا... يغرقنا في الألوان الفاسدة إذن... طيّب لماذا يختار هذا اللون بالذات (الألوان ما رااااقدة... قلتها وأنا أضحك) ربما لأنه يشابه الأرض؟

ربما لأن الحكومة تريد لنا أن نشبه الواطة...
صرنا نشبه الواطة الآن سيدتي الحكومة...
صرنا الواطة ذاتها... سأتحقق من ذلك لاحقًا... إذن...

ارحمينا من هذا اللون البني... وارحمينا من هذه الديناصورات الخرافية ناقصة الذيول التي تقهر الملامح بحقدها البالغ... يطالعنني

وهنّ يكدن يحرقن بنظراتهنّ المقعد الذي أحجزه «لعبير»... تناوبن على سفك استعدادي لها...

ممكن المقعد دا؟

لا والله فيهو زول.

.....

لو سمحت ممكن المقعد الفاضي دا؟

فاضي؟ فاضي في عينك... أقولها في سرّي وأنا أرى «عبير» تحلّق بينه وقلبي وترسم أقمارها ونجومها في فلك انتظاري... تحطّ حمامتها على كتف لهفتي...

فيهو زول.

.....

أقف مستاء مثل الصيف الذي يئس من ربيع هذه البلاد ومضى يؤسس لعالم من جحيم ... أمدُّ يدي على اتساعها وأنا أصرخ

اسمعي الزفت دا شايلاهو وين ياخي؟... ما تستأذني أول حاجة... في زول هنا...

تتركه وتمضي... تتجرر بقايا حقدها... وذيلها المنتوف

ما تفتحي دينك دا تقولي شيء... ناس غريبة خلاص...

.....

اللهم انعل دين هذه الديناصورات... اللهم آمين

الخلوة غير الشرعية، هكذا يسمّون جلستنا... نفتح لهم واحدًا من أبواب الجهاد... نحن إذن نساهم في عبورهم للجنّة... هم وقانون النظام العام... كيف نجلس أنا و«عبير» نلصق عيوننا وأحلامنا وشفاهنا قرب شجرة الجامعة التي تظلل جزءًا من الجامع الصغير؟ أو ليس هذا أدعى للجهاد فينا؟ من رأى منكم منكرًا... فليغيره بيد الحكومة الطائلة... كيف تشرب عيني بنظراتها ؟... نظراتها؟

أعلم الآن لماذا سبحت أشرطة الأغاني بمكتبة التلفزيون والإذاعة في دمها... لأنها أسرفت في النظرات... لأنها قاومت الموت باللحن... وهاهي تقاوم اللحن بالموت... سُحبت كلها من شعرها على أرضية المكتبة وأعدمت لأن ماضينا من الغناء لا يشرّف الصحابة الجدد... ولكن الحقيقة الوحيدة هي... أن ماضينا من الغناء يفضح عجزهم وبلادتهم... و يذكّرهم بعقدهم كلها...

.....

أدب الخطيئة هذا هو الذي غسل إنساننا من وجوده... صبيان الحكومة وصبياتها لا يعرفون كيف تنبت الألفة بيننا دون أن تهتزّ أركان الجنس... هم هكذا بقايا عقد.

وحين تنبت الخطيئة في هذه الرؤوس المليئة بقذارات العقد النفسية فإنها تقتلنا بنظراتها وربما بألسنتها ولكنها تمضي لتمارس عقدها بعيدًا عن الرب... الرب عادة لا يدخل مكاتب الاتحاد ولا جمعية القرآن

الكريم ولا تلك المنظمات المنزّهة لأنه يثق في طهرها ولكنه يتفرّغ لنا نحن تحت أشجار الجامعة وتحت أشجار البلاد كلها... الرب يمكنهم عادة أن يقنعوه فيما بعد بأن الضرورات تبيح المحظورات... نحن من أثرنا فيهم هذه الشهوة... اللهم هذا قسمهم فيما يملكون فلا تلمهم فيه... إذن لماذا كانت هذه الديناصورات منتوفة الذيول تحب هذه الأماكن التي تركها الله لهم وتفرغ لنا نحن بالخارج؟ تذكرت رايخ على كل حال...

«كان عالمًا سيكولوجيًا عظيمًا وقد آمن بأن الطريق الوحيد الفردي إلى خلق مجتمع صحي هو الحصول على أناس لا يعانون من أي كبت جنسي... لقد آمن بأن أنواع الكبت تشكل نوعًا من الصدفة أو المرارة الصلبة فوق الشخصية مثل السلحفاة».

«الكثير من الناس مصابون بخجل اجتماعي... يصعّب عليهم جدًا مهمة أن يخاطبوا الجماهير المحتشدة... عقدة المنصة... يسعون للتغلب على خوفهم... وينجحون بالدربة ويعبرون عن أنفسهم بحرية... يفتحون بينهم وبين الآخرين أبوابًا من ثقة كانت تغلقها فقط الهواجس المتراكمة... لكن من يمكّن هؤلاء من التغلب على خوفهم الجنسي من المنصة؟»

ما علينا... ما علينا... لا والله علينا كثيرًا... ولكن...

انسرب هادئًا لنفسي بعد أن جلست «عبير»... تسكن كل حواسّي

إلى مساربها... تمسحني عيناها بمنديلٍ من راحة.

تأخير عشر دقايق

أوسعت عينيها وهي تنظر إليَّ... لم تجب... كأنها تقول لي «وكمان تقول تأخير؟» أخرجت من حقيبتها مرآة صغيرة طالعت عينيها قليلًا ثم جرّت بلوزتها للأسفل وهي تعدل جلستها وتضربني بيدها في يدي وتقول:

دا شنو العملتو أمس دا؟

شنو؟

كنت اتصلت عليها عند الثالثة صباحًا بعد أن تمنّيتها أن تقاسمني كأسي الجميل المملوء بها... نام «خالد» المزعج بعد أن أحرقتُ بصمتي هشيم الكلام معه... يزعجني هذا «الخالد» كثيرًا... متى سيتركني ويمضي لحال فظاعته؟ أنا أشرب كؤوسي هذه لأحادث «عبير» ويصرّ هو أن يكون حاضرًا... غدًا... عليَّ أن أخبره غدًا... أنا أشرب «لعبير» وليس له... نام... ركلته بنظرةٍ مشفقة ثم اتصلت عليها... اكتشفت أن صوتها المغسول بالنوم أجمل من كأسي ومن النوم نفسه بل ومن صوتها المعجون بالصحو...

«سيف» ؟

أيوة

أنت مجنون؟ الساعة كم؟

والله ما عارف لكن الوكت بدري تكون زي عشرة ونص كدا

ضيّعتُ الزمن منذ أن مسحت كأسي بمنديلها الرمادي وجلست للشرب ... ماذا عساني أعرف عن الزمن وأنا في حضرتها.

عشرة شنو؟ الساعة تلاتة... أها داير شنو؟

داير شنوووووو؟ داير شنوووووو؟ والله بس قلت تشاركيني النشوة الأنا فيها دي

طيّب...

وكأنها جلست في منتصف سريرها... أسمع صوت السرير وحركة التلفون المنتقل من المنضدة الصغيرة إلى حجرها... كأنني أحسست بحرارة ما... صوت أمعاء قطتها يأتيني ناعمًا... ياهذا السائل المجنون يرهف سمعي لإمعاء قطة؟ ترقد قطّتها دائمًا بين يديها... تنام وتتقلب في الحب... متى ستبدلني بهذه القطة الحيوانة؟ بدأت تغير من قطة يا سيف؟ هاهاها

هذا العالم أوسع من أن نغير من بعضنا البعض... وضيّق لدرجة أني أحسد قطتها... ترترة أمعائها منتظمة جدًا... تنعم هذه التافهة بكل الراحة وأنا يمزّق نشوتي شخير هذا السخيف... «خالد»... خلاص سأخبره حال أن يعود من رحلته الخرافية تلك بأني ما عدت راغبًا في منادمته القاتلة بعد الآن...

وبعدين ياخي أنا ألف مرة قلت ليهو ما تجيني ببنطلونك العجيب

دا... ياخي بنطلون زي «الزردية» ؟... لا خلاص دي آخر مرة.

القطة تدفع بي إلى جنونٍ وشيك وهي تصرّ على إيصال ترترة أمعائها المنتظمة... عبير تهمس همسًا ناتمًا وهي تغازلها... هل أدركت غيرتي منها... هل مضحكٌ أمر الغيرة من قطة؟... كأنها ترفعها قليلًا على الوسادة... أحست بارتفاع معدل الترترة... متى تحسّ بارتفاع معدل موتي؟ متى؟... السماعة الآن على المرتبة أسمع حفيف الملاءة بوضوح... رفعَتْها وتثاءبت:

والله أنت مجنون

عارفة... قبيل قربّت أعضي أصبعك... قربّت... قلتها وأنا أضغط على الرا.ء

طيّب مالك ما عضيتو

ستقتلني هذه البنت... والله ستقتلني... كانت الغرفة لا تتوقف عن دورانها اللذيذ... «خالد» ينام خارج التاريخ... يبدو طرف قميصه خارجًا من البنطلون وهو ينام في كامل حذائه وجواربه البالية... يفتح عينًا ويغلق أخرى وكأنه يطالع مستقبله البعيد جدًا... غير الموجود أصلًا... يرقد بعرض السرير تكاد رجليه تلامسان الأرض ولكنه يبدو مبتسمًا لأنه ينعم بنصف سرير كامل الآن... فهو عادة يفتقد النوم على السرير... منزلهم.. يا للمسكين.. به سريران فقط... وهم يقاربون العشرة... عُزّابٌ عظام جاءوا من كل السودان

لينشروا قهرهم على عاصمة البلاد الحبيبة... ما علينا...

طيّب بكرة بعضيهو

لا أنت تعضيهو لمان كنت محتاج تعضيهو مش تستأذن مني أسع وبعدين تعملا شغلة... ياخي أنا دايرة أنوم

وأنا ما جاني نوم قلت أصحيك معاي.. فيها حاجة دي؟

«سيف»

أيوه...

مشفقٌ جدًا من الجملة القادمة... كثيرًا ما كانت تضع السماعة وتنام... أظلّ مشدودًا للسماعة طويلًا أحتسي ما تبقى في كأسي وأخرج من التاريخ لألحق بخالد في غيابه العظيم

بحبّك.

دارت الغرفة أكثر... أعرف الآن كيف كانت شفاهها وهي تنطق هذه الكلمة القاتلة... تضمهما أكثر وتهمس بها... قالتها لي مرّة في الجامعة فتصدّعت رأسي... يستحيل فمُها وردةً وكمنجةً وشجرتين من لبلاب يتقاسمان قلبي... تنشران أوراقهما على أضلاعي لتضغط رئتي المسكينة فيستحيل النفس بحرًا من حنين وحمى... الغرفة الآن أكثر اتساعًا... الزجاجة أمامي تتراقص... قامت بواجبها على أكمل موت... غفرت «لخالد» كل مشاغبات نومه... وتغاضيت حتى عن بنطلونه العجيب... ونمت.

لا أدري كم هي الساعة الآن ولكني أنشط جدًا من أي وقت مضى... ساعتان تبقتا على موعد لقائنا في الجامعة... أين المنديل؟... منديلها الرمادي... أخرجَتْه من حقيبتها ذات يوم ووضعته في جيبي... فابتسمتُ... وأزهرت شقوق جيبي... لم يفارقني لحظة... كلما تحسّ باتساخه تأخذه لتغسله وتعيده إلى صدر عطرها الوثير وتعيده إلى... أنا لا أحرّكه مطلقًا، ربما يتسخ بفراقه عنها فقط... أخذت المنديل وخرجت... أنا الآن في كامل الانتظار.

-

الخرطوم 00\00\1989م

«ابتسام»

حاولي أن تشرحي لها أي داء يعتصر عينيه... أف... لا تخبريها... مثل هذه الأمور لا تشرح... يقول كل صباح

أنعل دينا ياخ... الداير يمرقا من دمّي دا شنو ؟... وهو يضرب صدره بيديه... ليته يستطيع

ما بتستاهل ياسيدي... والله ما بتستاهل.

يبتسم وهو يطالعني بنصف عين... هذا «السيف» مجنون أكثر من العشق نفسه... كل هذا الموت الذي تصنعه له «عبير»... وكل الخوف على أمه وأخوته الذي غيّر لون شعره في ليلة واحدة... حلم

بأن أمّه مرضت وأدخلت المستشفى فقام مفزوعًا أبيض الشعر... وعلم في إحدى الزيارات أن حلمه كان واقعًا... وأنها ما زالت طريحة الفراش... وتفرّغ هؤلاء التافهون له... يتفنّنون في إذيته من دوننا... كلما أُخذ للتحقيق عاد بجراحٍ غائرة... مرة أعادوه في غيبوبةٍ كاملة أفاق منها بتوقف إحدى أذنيه عن السمع... طوال فترة التحقيق كانوا يضربونه عليها... عليها فقط... ظلّ ينزف منها سائلًا أسود كل ليلة... ويفقد توازنه كلما وقف... ومرة... لن نخلص يا حبيبتي... فمرّاته لا تحسب... هو لا يستكين ويظلّ يستفزهم بابتسامته الحارقة ولكنّ جسده ينهار... جسده لا يقوى... أثق جدًا أنك لن تعرفيه الآن... وهذه «العبير» تهدر ما تبقى من روح... يبدو مضحكًا جدًا اسمها... عبير... لو رأيته كيف يغسل عينيه بدمعها وهو يجهد أذنه الوحيدة حينما أغني له...

ليلا سهرتو سعيد ماليهو آخر

لا ليهو فجر جديد لا ليهو باكر

حتى إنني ما عدت أغنيها له إطلاقًا... ما عدت أغنيها... ما عاد «قاسم» و«صلاح» يلحّان في طلبها كما كانا... وإن فلتت من فم أحدنا نسرع لإسكاته خشية ميتةٍ جديدة «لسيف»... تكفيه ميتاته المائة... وحين يدندن هو بها ننام غصبًا عن خوفنا من النوم... في إحدى الزيارات... دسّ رسالة كتبها لها جيدًا في وسطه وهو يتلهف

عينيها وهي تقرأه فيها... عاد بها... عاد بحزنٍ غريب.

عارف يا «سيف» يا ولدي «عبير» لسه ما جات شالت جوابك الرسلتو ليها مع «عمر» أخوك المرة الفاتت... «عمر» كلّمها بالتلفون وقالت بتجي وما جات... ومشى ليها في بيتن أمّو قالت ليهو البت دي مافي وما بقدر أشيل منك حاجة

بعدين هي ذاتا لا بتجي تسأل منك ولا حاجة

تنهدت وهي تدمع وحاولت تغيير الموضوع... ربَتَ هو على كتفها ولكن كتفه تهدّل حتى ارتخى قميصه... وعاد برسالته ودمه المسفوح... عاد بخيباتنا كلها معه... عاد بجسدٍ منهك وبلا روح... يقرأ ما يكتبه ويمزقه... يكتب ويمزق... ما عادت ناحية من قلبه بلا تمزيق... أصبح مِزقًا من حنينٍ وحبٍّ خاسر... وجلّادون لا يفترون... المحنة أن نترك كل أسئلتنا بلا أجوبة ونغرق في جدلية الامتثال... الموت أن يقتسم قلبك الخوف والقهر وتبيت في كفنٍ العجز... الدمع أن ترحل عينيك عن صورة حلمك وتسلمك لليل الكوابيس...

حبيبتي

آهٍ.. آهٍ... كيف سنغسل عينينا بالحب وقد نهش عيني «سيف» حتى بات كشجرةٍ يابسةٍ لا تكاد تتّقي كفوف الهجير فكيف ستمنح الظلّ؟... كيف سنزرع حواشي أحلامنا بلهفة العشّاق والريح تقتلع

شتول شوقه ؟... كيف سنبذر أمانينا في قلبٍ بكرٍ وقلبه تسكنه الوحشة ؟... هذه «العبير» جزءٌ من حركة دمارٍ رهيبة لا تحتمل... هو يحتمل الضرب والركل والجراح والشتم هنا في المعتقل ولكنّه ينهار حين ترد عليه خطاباته بركلها وضربها هي... حين تحرق نبتة حروفه بعطش هجرها... هل تعرفين الفرق الآن؟ هذا ما يقتله... قاسٍ هذا الحبّ الميت... قاسيةٌ جدًا هذه الدنيا...

سمعنا عبر نشرات الأخبار أن المعتقلين سيطلق سراحهم قريبًا... نشراتهم هذه هي الكذب ذاته... ولكنّا نعتقد أن هناك ضغوطًا حقيقية هذه المرّة... ربما جعلتها تصدق ولو مرّة واحدة... عمومًا... سنخرج يا حبيبتي لأن قوتنا ستهزم ضعفهم... هم السجّانون ونحن المساجين ولكنّا الأقوى يا حبيبتي... نحن الأقوى.

«التاج»

-

00\00\1995م

كلما عادت بي الأيام للحظة كتابة رسالتي هذه كلما خضت في سيرة أسف بليغة... كلما أحسست أن هذه البلاد استبيحت لدرجة أن الناس كلّفوا أنفسهم أرواحها... وأقدار حبّها وكرهها وماتوا في حياتهم المعتادة... هذه البلاد التي أغرقتنا في محيطات الخوف

والريبة والشكوك... ومضت تتساقط تحت مطارق هؤلاء الغرباء... باعوها... ولكنّهم لم ينسوا مطلقًا قبل أن يجرجروها نحو مشترييها الجدد، أن يحرقوا كل أوراقها وتواريخ شرفها وسماحتها.. وشروط استقامتها... وأن يعبثوا بعدّاد نزاهتها ويقدمونها جثةً لا حياة ولا تاريخ ولا حياء فيها.

كلّما فتحت رسالة «عبير» لي بعد سنوات من كتابتي رسالتي تلك... والتي كتبت لك عنها وعن ما فعلته «بسيف»... وعن مساهمتها الكبيرة فيما حاق به وأدّى لموته آلاف المرات قبل أن تغتاله العصابة الغريبة كسيرًا آسفًا...

وكلما تذكرت أيّ احتقارٍ كنّا نحيطها به... ونحن نرى «سيف» يذوي ويتلاشى أمامنا لا من تعذيب كلاب الأمن له ولكن من ذهابها بعيدًا بعيدًا عنه... وهو يهرول باتجاهها...

كلما شلّ التعذيب أقدامه كان يهرول بأرجلٍ من حبّ صوبها... وهي تسحب المضمار من تحته وتضربه به على وجهه وصموده وحبّه...

جاءني صديقي برسالة منها... بعد رحيل «سيف»... لم أستطع أن أنظر في وجهه وصرخت فيه:

رسالة شنو يا دين؟ أنا نسيت حاجة تافهة اسمها «عبير»... شيل الزفت دي من قدامي واطلع

«تاج السر» ياخي نحن عرفناك زول واعي ومتزن... ما تخلي

الحزن يفقدك إنسانك وقاطعته صارخًا:

يا «عاصم» ياخي أنا ما داير مواعظ وأركان نقاش شيل الدين الجبتها دي واطلع من هنا.

جدًا يا سيدي.. أنا طالع... بس بدون مواعظ وأركان نقاش حاول تستعيد «التاج» النحن بنعرفو... وما تستسلم لحزنك... وأنت عارف تمامًا إنّو حزنك قدر حزننا وربما حزننا الآن بدا أكبر لإنّو بدا يشملك أنت كمان.

.....

لم أستطع إشعال سجارتي... بل لم أستطع إخراجها حتى من صندوقها في جيبي... وبقيت منكفئًا على ركبتيّ قرابة الساعة.... تاركًا الدمع لحفلاته... ولحرارة الغرفة التي كادت تشعل قدميّ بلسعها...

مضت ساعةٌ أخـرى قبل أن أخلع قميصي المبتل بالعرق والآهات... أشعلت سجارتي... وتنبهت كيف أني ـ تقريبًا ـ طردت «عاصم» من منزلي... واحتقرت استسلامي لغضبتي التي أخرجتني من وقاري... ولكني ما زلت لم أغفر له إحضاره لي رسالة من هذه الـ«عبير» وهو يعلم ما الذي فعلته واستمرت بفعله في «سيف» وفينا جميعًا... أغمضت عينيّ مرة أخرى وأنا أنفث دخان سجارتي في سقف الغرفة.... وحينما استدرت نحو الباب واقفًا لمحت ظرفًا على

طرف المنضدة الصغيرة... مسكته بعصبية شديدة... وكرفسته بيديّ ورميت به على الأرض... ولكني سألت نفسي:

اسي أنت عرفت فيهو شنو الظرف دا؟

تماسكت مجددًا وفتحته... كانت مجموعة أوراق تبدو قديمة جدًا ومتسخة وكأنها مرت على ألف يدٍ قبلي، أول ورقةٍ فيها كانت رسالة من «عبير»... ولكنها ليست لي... كان تاريخها قديمًا جدًا... يعود لأيام المعتقل الأولى... تبتدرها بـ حبيبي «سيف»... لم أستطع احتقارها هذه المرة ولكني أحسست بغصةٍ غريبة قبل أن أحاول إعادة الورقة إلى وضعها الصحيح وأشرع في قراءتها..

غاية انهيار الإنسانية بداخلنا هي التقدير الخاطئ لموقف تظل تقدّم أوراق دفاعك أو هجومك على شخص آخر بناءً عليه!!

الموت كله أن تفضح سرًّا توهّمته بداخلك... لتفضحك الحقيقة خارجك لاحقًا، وأنت تطارد سترًا لن يعود، وسهمًا خرج عن كنانته إلى القلب المفطور أصلًا، فتناثر الماضي والحاضر.

أرعبني مظروفها ذلك رعبًا حقيقيًا، قرأته، وأعدت قراءته على وقع صندوق سجائر كامل، قرأت كل الأوراق والقصاصات المصاحبة، تصدّع رأسي، وقلبي كان كأن جمرًا يحيط به من كل جانب ويشعل حفل شوائه الصاخب.

جلست ليلتي كلها أفكّر وأعيد التفكير، وأرسم الأحداث

وأمسحها، أحدّق ذاهلًا في السقف، وأضغط بيديَّ على جبيني اتقاءً لانفجاره الوشيك.

هل بلغت الحقارة بأجهزة الدولة، أن تدمّر حتى العلاقات الإنسانية؟، لم تكتف بالتعذيب، والاغتيال وحدهما فمضت تدمّر كل الدوائر المحيطة بـ«سيف»؟

الرسائل الملفقة باسم «سيف» إلى أهل «عبير»، والتهديدات المستمرة لإخوانها حال استمرت العلاقة، والبدء الفعلي بتنفيذ التهديد بفصل والدها عن عمله، مع رسالة تعد بتدمير الأسرة بالكامل، وإعادته لعمله بمجرد التأكد من انتهاء العلاقة، ولم يكن الأمر تهديدًا فقط، وإنما اختلاق قصص بزواج «سيف» من زميلة له، ومقابلتها «بعبير» وأسرتها.

لم أستطع تحمّل كل تلك التفاهة، والحقارة التي تمارس فيها أجهزة مسؤولة، ولم أكدْ حتى إن أتخيل حالة الانهيار النفسي التي غاصت فيها «عبير»، وأسرتها.

قالت «عبير» في إحدى قصاصاتها، إن «سيف» انتهى بالنسبة لها كنموذج لانتهازي حقير، باع مشاعرها وتلاعب بها، ولم تكن حتى تتحمّل سماع اسمه بعد اطلاعها على كل تفاصيل خيانته لها، نهايةً ببجاحة «زوجته» التي جاءتني لتتهكم عليّ في منزلي، كل ذلك حتى قابلت «صلاح» زميله والذي أعرفه من أيام الجامعة، وتحاشيته،

وتحاشيت مجرد النظر باتجاهه إلا أنه لحق بي وأخبرني بوفاة «سيف» تحت التعذيب، وحكى لي عن سوء حالته بسببي، وانهياره النفسي إذ إنني لم أكن بجانبه في أيامه الأخيرة، وعرفت منه كل شيء تقريبًا، وأنا الآن أتمنّى كل لحظةٍ لو أنني أموت لألحق به هنالك يا «تاج السر»، يئستُ من الحياة، وحتى من الموت الذي يجمعني به، بعد أن ساهمت في اغتياله ألف مرة.

و..

لم تستطع أن تكتب كلمة، بعد واو الوصل أو واو القطع هذا حتى ولا اسمها.

قصاصتها المبتورة هذه أكدت لي أن الموت كان رحيمًا بـ«سيف» مثلما أن الحياة كانت تعادل آلاف الاغتيالات لـ«عبير»، هكذا بهذه البساطة لا تتورّع الأجهزة عندنا على اغتيال الحياة بكامل مفرداتها، ولا تعبأ مطلقًا.

هكذا فقط

أسلمني مظروفها ذلك لطعنةٍ في الصدر ما زالت تعاودني، أنا خاصةً، لأني من أوغر قلب «سيف»، رغم أنه لم يكن يسمع لي، ولم يكن مؤمنًا بكلمةٍ واحدةٍ أقولها، ولكنّ الشواهد أحالت مواقفه لمرونةٍ ما كان يمكن لها أن تحدث تجاه علاقتهما، إلى أن بات لا يذكرها مطلقًا.

–

يدور بي السرير مرة أخرى، سريعًا على غير عادته دائمًا، حتى ليكاد يطيح بي، أسمع اصطكاك الأسنان والأسلاك، وأحسّ بنهش الإبر في يديّ جرّاء الدوران هذا..

طبيبان يدسان غموضًا ما بين حواجبهما وهما يحيطان بي

لا الليلة تمام يا تاج السر

أيوه أحسن كتير... بس خلّي عندك إيمان والعلاج حتمًا بيستجيب

إيمان ؟...

وهل غير الإيمان؟

أنا أطالع الروح تتفلت من بين أصابع قدميّ وأنا ألاعب «سيفي» الصغير...

تنجرُّ حقول الشوك في شراييني وأنا أدلق كأس ذاكرتي على «ابتسام»...

كلّما عادني الأقارب والأصدقاء أصرّ على الجلوس والحديث معهم... وحينما يخرجون أسبح في غيابة الموت من جديد...

الأرانب زاد وخز أظافرها في دمي فبتُّ أكاد أرى كفني

والله يادكتور بس ربك يسهّل لكن خائف جدًا من قطار الحياة.

ياراجل... أنت في نص قطار الحياة.

عارف يا دكتور... بس خايف من المحطة الجاية... حاسّي إنو

مُصر ينزّلني المحطة الجاية

يا راجل أنت مؤمن... والمرض ما بيكتل.

المرض ما بيكتل لكن بيوصلك مرحلة يخليك تتمناه يكتلك... لكن تعرف يا دكتور أنا ما خايف... مرات بتكون متخيل ليك محطة وصول وباذل جهدك كلو إنك تصلها... المشكلة لو نزلت في محطة قبلها؟

ما أقسى أن تنزل في محطةٍ لا تعرف فيها أحدًا...

كلّ أحبائك خلفك وأنت تبحث عن فندق يؤويك...

اللغة غريبة عنك... وليس معك نقود... وبرودة الطقس تكاد تفجر أذنيك... والجوع يتحرش بك...

تكاد تدهسك المدينة الجديدة بوحشتها وأنت تحمل حقيبتك وأوجاعك وهواجسك وجوعك على كتفك وتطالع اللافتات...

الموسيقى الغريبة تعبث بإيقاعاتك كلّها وتحرّض عليك الوحدة... تحرّض عليك التوحش الجماعي...

تحرض عليك الموت اللئيم.

والتفتُ فجأة نحو «ابتسام».

أنت عارفة يا «ابتسام» أول مرة شفت فيها «سيف»؟

بالله عليك يا «التاج»... بس بكرة نتخرج من هنا وأحكي زي ما أنت عايز.

أنا يا عويرة... ما متخرّج من هنا أحسن ليك تسمعي... أنا متخارج من هنا... متخارج دي كلمة المعتقل المفضلة كانت... ولكنها كانت تخرجك للدنيا... أما الآن يا عزيزتي فإنها تخرجك عنها!!

أجهد في إخفاء دمعتي وأنا ممسك بيد «سيف» الصغير... وهو منهمك في تشغيل لعبته وفي عينيه بريق غريب... تدير «ابتسام» وجهها عني وتكتفي بنهنهة حارقة.

يا «ابتسام» نحن في بلد غريبة، شارع طيب، متسامح، يعيدك لطبيعة الإنسان الأولى

ومكاتب معتمة تسرق الوطن، وسماحته، وإنسانه، وتفتح النار في كتب تاريخه الطيب كلها

تنتهك كل الحقوق، تضرب بها عرض الحائط، تهدد، وتمضي دونما خطوط حمراء صوب كل أنواع البشاعة، وتتحول بعدها لمجموعة من الجرذان المذعورة تتخفّى خلف تقارير مفتراة وأكاذيب وقصص مختلقة، ثم يبدأون في الاستعداد لحضور مراسم التشييع!!!

أي وحوشٍ هم؟

يبدو أن مهمة الإنسانية أصعب كثيرًا مما يتخيل البعض... تبدو مستحيلةً تمامًا على الجبناء... بينما يدفعها الشجعان مهرًا لمبدأ أو فكرة ويمضون تزيّن مواكبهم ابتسامات الرضا ونظرات التقدير.

وهكذا دائمًا يستعرض التاريخ سيرة الشجعان المغتالين... ويلفّ الجبناء ببشاعاتهم ويرمي بهم في غيابات البؤس.

هوّن عليك يا حبيبي... هوّن عليك.

يا دكتور.... يا دكتووور

كان قد بدا عليّ الإرهاق... يسيل منّي العرق بغزارة... غائر العيون... خائرٌ تمامًا... أكاد أخترق السرير... وتكاد الأسلاك تخترقني... وحلقي كأن به طواحين تدور بآلاف السيوف والسكاكين... أمسك به حتى أكاد أختنق... بدأت أسعل سعالًا يكاد يقتلعني من وسائدي المتعددة... تتلاحق أنفاسي بسرعة...

بعدها لم أشعر إلا وأنا أطالع عيني «ابتسام» من خلف كمامة الأوكسجين.. بعيييدة، شاردة... تقف منحنية عليَّ ممسكة بيدي في قلق، وتنطق باسمي في أسى وكأنها لن تراني مرة أخرى... فابتسمت لها من خلف الكمامة وضغطت على يدها وكأني أقول لها إنني مازلت حيًّا... جلست منهارة على مقعدها... وبدت تقرأ في سرّها بكلمات لم أتبيّنها... ودمعها لا ينقطع

ياخي حرام عليك

مالك يا بت؟ حصل شنو يعني؟ عادي

عادي؟ طيّب طيّب بس خليك في نفسك ولمان نطلع من هنا أحكي زي ما أنت داير.

–

بعد نحو شهر مما أفرج عنا وغادرنا سجن «كوبر»... بدا «سيف» ينشط مجددًا في حركة النقابات الناشطة ضد تعسف السلطة، وممارسة الفصل الجائر الذي بدأ يطول كل المرافق العامة، والأساليب القمعية الهمجية التي مورست ضد جميع الناس... قررت نقابة الأطباء الدخول في إضراب عن العمل... للفت الأنظار إلى بيئة العمل المتردية داخل المستشفيات، وللوقفة الصلبة ضد فصل الأطباء والكادر الطبي على الهوية السياسية فقط... كان للإضراب أثر قوي في كسر حاجز المواجهة مع النظام وأجهزته القمعية مما ولّد ردة فعلٍ عنيفةٍ جدًا من قبل هذه الأجهزة، والتي بدت كحيوانٍ جريح وضع حياته كلها في مواجهة شبح الموت الجاثم أمامه... وجرى اعتقال عشرات الأطباء... ونقلوا مباشرة إلى بيوت الأشباح ومورست ضدهم أعنف ممارسات التعذيب بوحشية غير مسبوقة، ومضت السلطة تمعن في إهدار الكرامة والحياة بلا وازع... حتى تُوقِفَ هذا المدّ المترامي على طول البلاد... البلاد التي بدت تستشعر ظلمة وظلام الدخول في وهدة هذا النظام القاسي والقاصم لظهر السلم الاجتماعي الذي كانت ترفل فيه... بد واضحًا للعيان أي مستقبلٍ ينتظر وحدة النسيج الاجتماعي والسياسي بالبلاد... وحاق بكل بيتٍ جرح عميق

جرّاء وقفة أبناء الشعب ضد ممارسات التنكيل الغريبة... والتي ومن عجائب الصدف أنها تتم بأيدي من يبشّرون بفجر الدين في البلاد... تعلو من مآذنهم بشائر عهد الصحابة الجدد... وتقتل بدم مثلّجٍ كل من يطالب بحقوقه المعتادة في الحياة الكريمة.

كانت البلاد فيما بدا أوضح من شمس نهارات الصيف الصارخة، إنها قد فارقت، وللأبد، صفحة السلم، وأنها وقعت فريسةً لفكرٍ متطرفٍ لا يؤمن بأي شريك، وأن الأرض عادت له وحده لا شريك له... وأن قيم البلاد في الفراسة والشجاعة وإعلاء قيم آلاف السنين من السلم الاجتماعي قد ذهبت أدراج أهواء عصابة جديدة تتحكم في مفاصل بلدٍ نما على ضفة النيل متسامحًا كريمًا موزعًا حقوقه على بنيه وناشرًا ضوءه على عتمات عقود مضت... تعيده جاهدةً إلى صحراوات بداوة قرونه الأولى..

بدا واضحًا أن كل ذلك ذهب إلى غير رجعة... بل وبدت تنتاب الناس أحاسيس متباينة، أقلّها على جدول التقييم... أن ما حاق بهم لهو مسٌّ جنوني قاهرٌ يصعب على قرون من العمل والنضال إعادته لطبيعته الأولى... حيث بدا التمييز على الجنس والعرق واللون السياسي يحكم، ولم يشذّ عنه حتى أبناء الأسرة الواحدة.

كان «سيف» عضوًا بارزًا على لوائح المطلوبين الذين تبحث عنهم السلطة، وكان يعلم جيدًا أنه مطلوب حيًّا أو ميتًا... خاصة وهو

الخارج لتوّه من سجن «كوبر»، وبدا له أنه ولد من جديد، فلجأ إلى الاختفاء تمامًا عن العيون، وبدت الحرب السرّية، كل طرف يخطط لها، وكانت السلطة قد ألغت قواعد اللعبة النزيهة، وعبأت بنادقها لقتال الناس والأرض، وحشدت عضويتها بكل أفكارها المتطرفة، فصارت أرض السودان معبرًا لهم للجنّة بعد أن حوّلوها جهنم لمن يخالفهم، وكانت الملائكة في تلك الأيام تظهر في نشرات الأخبار... وتتقافز من البرامج التلفزيونية كلّها... وتجلس في المقاعد الأمامية في احتفالات النصر المتوهم... وكانت تلبس لبسات العسكر... وتحارب في أحراش الجنوب... وتطارد مخالفي النظام من بيتٍ لبيت ومن حارة لحارة... وكأنها عسسٌ بليد.

مضى «سيف» ليحصّن نفسه جيدًا ضد هذا الهوس... وهو يعلم يقينًا أن ظهوره في هذه الأيام يعني قتله وصلبه على حائط مبكى النظام... قربانًا لدينٍ بدت بوادر إهداره للعيان... وأن ألف حنجرةٍ ستشهد بكفره... وألف سيفٍ سيتلذذ بدمه في انتظار وعد الرب بالفردوس

كانت العاصمة «الخرطوم» تقرأ كل ذلك، متوجسةً، خائفة.

ليس في جسدها الطاهر المتسامح موضع شبرٍ ما به دبابة أو حاملة جنود، أو مخبرٍ يخفي بندقيته الآلية، يستعد للقتل على مجرد اشتباهٍ...

البلاد تحولت إلى أرض معركة.

ليس في شوارعها مترٌ لم تستبح حرمته دراجات منتسبي جهاز الأمن ولا عرباته منزوعة الأرقام والأخلاق.

وليس في جسدها شريانٌ واحدٌ لم يُهدر دمه فداء مشروع خاسر بدأ يمسك بخناقها وهو يبتسم ابتسامته الصفراء المخادعة

كان «سيف» يعلم كل ذلك، لذا فقد حصّن نفسه جيدًا، ومضى ليستعد لمعركته الكبرى

زرعت أجهزة الأمن مخبريها في كلّ زقاقٍ وحيٍّ وشارع، ومضت تسأل طوب الأرض وتقتلعه، بحثًا عنه، وهو يطالع من مخبئه بقلبٍ مؤمن بالكرامة والوطنية والنضال..

ولكن !!!

اعتقلت السلطات شقيقه الأصغر، وبدأت بحفلات تعذيبه من أمام منزله، حتى كُسرت ساقه قبل أن يلقى به في مؤخرة السيارة منزوعة الأرقام، وبدا الجنود الملثمون يكيلون الشتائم له ولأهله ولكل الحي.

صدرت الأوامر أن يبقى شقيق «سيف» قيد الحبس إلى الأبد... أو أن يسلّم «سيف» نفسه للسلطات كشرطٍ أوحدٍ لإطلاق سراحه.

اجتمعت قيادة الإضراب... وأجمعت على أن هذه مناورة من النظام اليائس... وأنها فترةٌ وجيزةٌ وستضطر لإطلاق سراحه تحت ضغط المنظمات... وأن على «سيف» الجلد والصبر والانتظار بعيدًا

حتى ترى ما يحدث على الأرض.

لم تكن الليلة لتمرّ، وبدت وكأنها قـرون، و«سيف» يرتب أوضاعه... ويعيد الأمر بينه وبين نفسه تارة... وبين رفاقه.

ياخوانا «عمر» أخوي دا ما بيتحمّل... هو أساسًا ما عندو قدرة... زول ضعيف ومسالم وما عندو أي خبرة في مواجهة آلة شرسة زي دي.

يا «سيف» هم ما عندهم معاه حاجة... في الآخر بيطلع... لكن أنت ممكن يكتلوك عادي.

هو برضو ممكن يكتلوهو عـادي... نحن خشينا معتقلاتم وشفناهم.

طيب خلينا نرتب الموضوع ولحـدّي الصباح بنعرف كيف نتصرف.

لا لا... أنا الصباح بسلم نفسي.

دا انتحار.

والانتظار هنا كمان معناهو إصدار حكم الإعدام في زول ذنبو كلو إنو أخوي.

يا «سيف»... حاول تهدأ عشان نعرف نرتب أمورنا... ونحن وصّلنا رسالة لرئاسة اللجنة وممكن تصلنا الخطة في أي لحظة.

صمت طويل... بدت فيه سحابة دخان السجاير سيدة الموقف...

حنق عام... وغضب مكبوت... ودموع مخنوقة... وأيادٍ تمسك بين عروقها دمًا يكاد يتفلّت... وحناجر يمنعها من الصراخ الانضباط التنظيمي والرغبة في خلاص يطبخ على نار هادئة.

تقطعه تنهدات عميقة صادرة من هنا أو هناك...

كانت الدار التي يتخفّون بها تقع على أطراف العاصمة... ضاحية هادئة... لذا فإن أي حركةٍ غير اعتيادية ربما تسببت في اعتقال عشرة أشخاص يحتمون بها، وربما اغتيالهم الوشيك... لذا فإن الغضب كان محتقنًا جدًا... مما أضفى عصبية بائنة على الوجوه... ومعرفةً مطلقةً بأن النظام ليست له أي خطوط حمراء... وربما يصل مراحل لم يكونوا قد تخيلوها أصلًا

وربما أن القمرية التي حطّت على رأس غرفتهم من الخارج... وشرعت ترسل ترتيلها البهي... قد أخذتهم من يدهم الموغلة في الحنق... إلى عوالم من تأملٍ بالغ... فسكنوا فجأة وبدون تخطيط... ومضوا يسمعون لها في خشوعٍ غريب... ومضت هي تقرأ مواجدها جميعًا... كأنها تقرأ سير البلادً والعباد في معلّقة فادحة... كلما همّوا بالحديث أطلقت لنشيدها العنان فصمتوا... وبين كل سيجارة تشتعل وتنطفئ... كانت القمرية تغسل الدخان بقداسة بكائها فيختلط الجو بعبق الصمت وضجيج الحلم بإيجاد مخرجٍ آمن «لسيف» وأخيه... والقضية كلها.

وتواتر القمري... وأصبح بالخارج سربٌ يرتّل... وبالداخل سربٌ يتبتل... ومضت الساعات بطيئة جدًا بين قرار متسرع ربما تنهار معه اللجنة والتحضيرات كلها... وما بين انتظار مدروس قد تكون نتيجته اغتيال «عمر» على أيدي أجهزة النظام الفاجرة لمجرد الحقد الشخصي على «سيف».

لا ما بيقدروا يكتلوهو... لإنو دا الكرت البيراهنو عليه.

أيوااااا يعني إذا ما ظهرت أنا هو بيكون بين أيديهم... وربما يحاولوا يوصلوا رسائلهم عبر إيذائه كل حين.

والله دا محتمل... لكن كلنا اتحملنا التعذيب.

اتحملنا التعذيب لإيماننا بقضيتنا... لكن ما اتعذبنا نيابة عن زول تاني.

كلو يترتب... خلونا ننتظر قرار اللجنة الصباح.

بدا الصباح متثاقلًا جدًا... و«سيف» على نفس جلسته... فقط تورّمت عيناه... وسيطرت العصبية على نظراته وهو يدير وجهه في عيون رفاقه الذين سكنت قلّة الحيلة في حركتهم... انشغل أحدهم بإدارة مؤشر الراديو لسماع نشرة الأخبار... ودلف آخر إلى المطبخ علّه يجد ما يصنعه وسط كومة الأواني المتسخة تلك... العصافير ورغم اجتهادها الواضح إلاّ أنها لم تلفت أحدًا لألحانها على شجرة النيم التي تلفّ الغرفة بأغصانها حتى لكأنها تحتضنها... أخرج

«سيف» من جيبه حزمة أوراق مطوية بعناية بالغة... وضعها أمامه على المنضدة الصغيرة... ثم اتجه إلى قميصه المعلّق على باب الغرفة من الداخل.... على مسمارٍ صغير يقوم بمهمة المشجب... وأخرج قلمًا ماركة «بيك» من جيبه... وعاد ليكتب كلمات محدودة على ظهر حزمة الأوراق... ويضع القلم عليها ويخرج من الغرفة... تلفَّتَ يمنة ويسرة ومدّ يديه أمامه وكأنه يحاول التخلص من أثقال ليلته تلك... صفّر لحنًا اعتاد عليه لزمان طويل وهو يحدّق في السماء لوهلة... وكان رفاقه يحيطونه بنظرات مشفقة ومساندة... كطائرٍ سكنتْ رفرفته بعد محاولاتٍ يائسة بذلها إثر وقوعه في شبكةٍ حاقدة، وكأنه يفكّر في حلّ اللغز المستحيل... موقنًا بعدم قدرته على الفكاك ولكنه لم ييأس بعد... زائغ البصر يحدّق في خيوط الشبكة من كلّ جانب... ولكنه يعتقد في مخلّصٍ ما...

يدرسون خطواته تلك بصمتٍ رهيب... فقط لفافاتٌ من دخان السجائر من يعبر فضاء الغرفة والـدار... والعصبية الصامتة... تصرخ في وجه كلّ شيء..

دخل «سيف» الحمّام لبرهة... وعاد وكأنه شخصٌ آخر... هادئ الوجه مرتاحه... جلس يشرب الشاي بحيوية ويفرك شعر رأسه الكثيف بيديه... ويصفّر بفمه مع أغنيات الراديو المنخفضة.

شباب كيف أصبحتو؟

لم يعلّق أحد... ولم يرد على تحيته أحد... ربّما الشفقة على الموقف... ربّما الخوف من القادم... ربّما الخوف من الآني... ربّما الخوف من الآتي... كلهم يعرفون حنكة «سيف» ودُرْبته... وقدرته على المناورة في أقسى الظروف... ولكن!! كلّهم يأملون في حلّ عاجل للأزمة العارضة... وكلّهم بالمقابل يعرف تفاهة النظام ولا مبالاته... وإمكانية فعل أي عملٍ وحشيّ متوقع أو غير متوقع... خاصة وقد بدأت الإضرابات تضعه في الزاوية كذئب جريح... انتشرت آلياته في الشوارع وأفراده برشاشاتهم وأكوام حقدهم ولا إنسانيتهم... العاصمة تحوّلت لغابةٍ مطلقة... ومضى القانون إلى المتحف... تتبعه لعنات النظام وتهديداته.

أنا طالع يا شباب.... قالها «سيف» بطريقة حاسمة وأتبعها... وأنتو لازم مافيكم زول يعمل حركة نهائي... أقل تصرّف متهوّر حايقضي عليكم وعلى حركة النضال كلها... أنا بعرف أتصرّف... الورقة الختيتا في الطربيزة دي فيها مجمل التفاصيل... من الآن مسؤول منها أنت يا «حيدر»... تقراها وتتواصل مع اللجنة... وأكيد حا نتلاقى تاني ونقعد نحكي عن التجربة دي... ثم أضاف وهو يبتسم... وحتى لو ما قدرنا نتلاقى يا شباب الموت واحد والحياة النضيفة واحدة... وعاش نضال الشعب السوداني.

الوطن... أن تحلم بغيمةٍ واعدةٍ وأنتَ بعدُ تمشي تحت العاصفة.

الوطن... أن تغنّي... وتصلّي... دون أن تحسّ وخزًا ما، أسفل قلبك ودون أن تنْقُرَ بأصبعك على أسنان الخوف.

طيّب خلّينا نشوف قرار اللجنة ونـ.... قاطعه «سيف» رافعًا يده.. بابتسامة عريضة... عريضة جدًا... وكأنها تلخّص تواريخ ابتساماته كلها:

أنا الآن مهتم بقرار لجنتي أنا... قالها بطريقة مسرحية... وأنتو انتظرو قرار اللجنة.

الحياة... أن تجد ما تقوله بابتسامةٍ ناصعة.

الموت... أن تتلعثم مشاعرك عن فعلٍ واضح وأنت تطالع صورة ما...

الموت هو الرغبة المالحة التي تفضي إلى تعمّد النسيان.

مرّ عليهم يحتضنهم واحدًا واحدًا... ويوزّع وصاياه عليهم... وهو مبتسم.... نَضِر الوجه... كعادته تمامًا... وربّما أكثر قليلًا من عادته... ولم يزد أحدٌ من رفاقه حرفًا... غاصوا في أحضانه... والدمع... ودخـان السجائر... وخرج بعد أن استكمل جميع إجراءات تأمين الخروج المتّبعة.

سرت في شجرة النيم نسمة هواء حائرة... وارتفعت موسيقى المارشات العسكرية من الراديو... وبدت حركة السيارات في الخارج تصل إلى مسامعهم.. وكان عليهم التعامل مع يومهم بنفس وتيرة

التأمين المعتادة... فمضوا يتخلصون من أعباء الليلة الماضية.. ويوزّعون المهام... وفق الوضع الطارئ الجديد.. لكنهم لم يستطيعوا أن يتخلّصوا من عبء تَرْكهم «سيف» يخرج وحيدًا.. كما لم يكونوا يستطيعون التخلّص من عبء منعه الخروج.. يا لسخرية الحياة.. تتواطؤ حينًا مع الموت ضدّ من يمجّدونها.. يا لسخرية الموت.. كلّما خَفَت ذكره مضى يؤسس لصدمةٍ صارخة أخرى وهو مستلقٍ على ظهر فداحته..

لابدّ من العودة من رحلة الموت هذي إلى مشارع البلاد الكبيرة.. البلاد التي كلّما دهستها الظلمة أضاءت.. أو كادتْ.

البلاد التي كلّما أسكرتْها صدمة.. مشى نمل سُكرها في أوصال أبنائها ففاقوا.. وفاقتهم صحوًا.. لم يظهر ثمّة ما تراهن به على النهوض من وهدتها.. سقوطها في جبّ تجار الموت.. كارهي الحياة.

البلاد التي أومضت برْقها في قلوب أبنائها.. فأمطروها حبًّا يفوق الموت... ولكنّ البعض كان عاقًّا بقيمة الوطن وقيمة الحياة... كان عبئًا على الإنسانية ومعانيها... عبئًا بلا قلب... فقط قطعة لحمٍ نتنة كلما أومض فيها البرق كلما تصاعدت منها رائحة الشواء... وبدا حفل حقدها في الاشتعال.

دلف «سيف» إلى فناء منزله... الدار وكأن أهلها هجروها منذ ألف عام... الأسرّة متناثرة في الفناء... تلعب بها شمس الظهيرة

الحارقة... ولأول مرة ينتبه «سيف» لشقوقٍ تنزل من السقف إلى منتصف الجدار... كانت في السابق تبدو كخطوط على الجدار ولكنه استبان عمقها الآن... وكأنها تشير إلى محنة ساكني الدار... كأنها تومئ بطرفها أن المِحنة التي أحدثت شقوقها في قلب هذه الأسرة، ممتدة لجدرانٍ رافقت حياتهم الصاخبة سنين وقاسمتهم كل أحداثها... منذ أن كان «سيف» يحبو على فنائها ويمشي حافيًا على رملها الناعم المرشوش بالمياه والمحبّات والونس عند الأمسيات... ومنذ كان «عم حسين» يصلّي الصبح تحت شجرة الفناء العريقة... ويمضي لأشغاله بعد أن يوزّع الوصايا وخطة أعمال اليوم والابتسامات النواصع... وكانت تشهد على إلحاح أمه «حاجة نعمة» وهي تحادثه بنصف غصةٍ وحلمين كاملين عن رغبتها في أن يمضي بعد نهاية عمله بالمستشفى كل يوم لتفقد منازل الحي المجاورة ومراقبة أوضاعهم الصحية عن كثب... وكانت تقول له دائمًا:

والله يا «سيف» فرحو يوم تخرّجك من الكلية أكتر من فرحنا نحن.

وقبل أن ينتبه ساكنو الدار لدخول «سيف» عليهم وهم في قيامة فقده هو وأخيه «عمر»، دخل أربعة من رجالات الحي يسبقهم قلق قاتل:

«سيف»؟ يا زول الجابك شنو والدنيا مقلوبة عليك؟

تعال معاي... أنت ما مفروض تجي أصلًا.

بالله يا «حاج عثمان» خلي «خالد» ولدك يسوقو يوديهو عند أهلكم في «مدني» لامن نلقى لينا حل في «عمر» كمان... وأنا كلمت واحد قريبنا في الجهاز يشوف لينا الموضوع.

كان «الحاج حسين» قد خرج من غرفته على أثر أصوات الرجال الهامسة وفتح أحضانه يتلقف «سيف» دون أن ينطق كلمة واحدة... يحتضنه وكفى... ومن خلفه «الحاجة نعمة» فقط تطلق أسراب دمعها وهي تدفن وجهها في ثوبها القديم.

يا«حاج حسين» أنتو بتضيعو في الوكت... «سيف» دا مفروض يطلع... الشارع دا فيهو حركة غريبة.

حشد «الحاج حسين» كل تواريخ نضاله وأمسك بيد «سيف».

«سيف» ياخوانّا لو كان داير يطلع من البيت دا ما كان جاهو... «سيف» جاي عشان يمرق أخوهو يا رجال...

فلتت صرخة مكتومة من «الحاجة نعمة»... ألجمها «الحاج حسين» بنظرة صارمة ومضى يقول:

«سيف» راجل... والراجل لو مات على حقّو أحسن ليهو من يعيش على حق الرجال

هكذا...

وهكذا فقط

انتهى المشهد بعناقٍ صامت ولكنه كان الأكثر ضجيجًا في الكون... احتضن الرجال «سيف» وخرجوا ليتركوا له فسحة وقتٍ مع أبيه وأمه... ساعة توقفت فيها أي لغة سوى لغة الإنسانية الفارهة... ساعة اختلط فيها الموت بالحياة... ولكنها أنتجت وعدًا لم ولن تنطفئ صورته من المنزل بعدها أبدًا... وعدًا كلّما دخلتَ للحيّ من أول الشارع رأيته يشعّ بأنواره ويحلّق بنبوءاته هناك... ساعتها، لم يدر الحاج «حسن» والحاجة «نعمة» هل ولدا «سيف» قبل ما يزيد عن الثلاثة عقود ، أم أنه يلدهما الآن !! ... وفي نفس الغرفة التي يقفان أمامها الآن... بذات سطوتها وإن تقشرت جدرانها وتشققت وبهت لونها... ولكنها ازدادت يقينًا وحميمية، يجري غير بعيدٍ منها نهر النيل الذي كان أكثر أصدقاء «سيف» قربًا، وأكثرهم حفظًا لأسراره

هل تنتج أبوّةٌ ما مثل هذا المشهد الفريد أو أنها فقط تتجمل أمام موت قادم؟

هل أفلحت أمومة ما في التصدّي لكلّ هدير القلب هذا برعشة ثباتٍ واحدة وهي تودعه حضن المجهول؟

حين تبدع الحياة في قهر الموت فحتمًا ستتساوى لحظتها أحاسيس احتضان ابن غائبٍ أو وداع ابن ذاهبٍ إلى حتفه.

حين تتقن الإنسانية أدوارها فلن تقف لحظة ضعف ما في طريق سنوات القوة القادمات

حين تشرع أبواب الحياة كلها الموت في وجهك فما عليك سوى التلفُّح بثوب الخلود وإطلاق ابتسامتين في وجه الموت.

عند اللحظة التي تكون فيها ميتًا لا محالة... فاكتب بيديك كتاب حياتك الأبدية شهواتٍ فارعات وأودعه مكتبة الكون وامضِ.

شهوة أن تغوص عميقًا للداخل لترى نفسك محلّقًا في فضاءات الخارج بنشوة نسرٍ وعزم قرش

شهوة أن تظلّ محتفظًا بذاكرتك طازجةً للحكي... وعميقةً للتأثير... ونشطةً لسباق الأنفاس.

شهوة أن تصطّف بين أغنياتك وأحلامك وأمنياتك لتوقّع على رسالة الخلود بالدم والدمع وأناشيد الجسارة...

شهوة النعناع الذي يطغى على الرائحة بالطعم وعلى الطعم باللون... ويطغى على النكهة بالإغماض عليها... والتلذذ بآثارها في اللسان والقلب وأطراف الروح... لتظلّ تساور الوجدان وتجاوره... تحاور الغد وتستميله لمشاريعها الفسيحة.

شهوة الوعي بالوطن.. تلك التي تخلقه...

شهوة الحفر على حجر الفكرة لتنقشها...

شهوة الصراخ بين يدي حبيبك الملتف بك لتنجب الأغنيات...

شهوة الرسالات الفريدة التي تمالئ البحار بالزرقة وتكتبك على السماء رسولًا من خلاص...

شهوة القصائد التي تفتك بالواقع والوقائع لتتلبس الكون بموسيقاها.

شهوة أن تحكي ويكملك الآخرون حرفًا بحرف... وحضنًا بحضن... ووطنًا بكرامة ومحبة ومواويل تسيل حتى قمة الجبل.

شهوة أن تُحِب وأن تُحَب

شهوة أن تموت والناس يتلقّفون حياتك بالأيادي والقلوب والصدور العارية إلا من فداء

شهوة البلاد لأحلامها وشهيتها لتحقيقها.

شهوة أن ترى الحياة في تجليات عدالتها الرحيمة.

قضى «سيف» قرابة الساعتين مع «الحاج حسين» و«الحاجة نعمة»... يكتبان ويوزّعان ويرسمان اليوم والغد والأمس... وكلّما احتقنت «الحاجة نعمة» بالدمع هربت للمطبخ لإعداد المزيد من الشاي والنعناع... لم يكن في ذهنيهما مطلقًا وهما يودّعانه أنه سوف يكون اللقاء الأخير... إنها فقط محض ليالٍ قاسية كسابقاتها ويعود لداره وأحبابه وعمله... ربما المزيد من التعذيب ليس أكثر... وربما تتنزل على جلاديه فجأة نخوة هذه البلاد فيكفّون... وربما تستفزّهم جسارته لفكّ أسر شقيقه الرهينة... فيطلقون سراحه كذلك... ربّما..

بالله يا «سيف» المرّة دي بعد تمرق من الجماعة ديل أعمل حسابك

وحسابنا وحساب عملك دا

والله ما يعمل أي حاجة يمرق وتاااني يمشي ليهم في مكانم... ولدي وأنا عارفاهو

لا لا خلاص بعد دا دايرنو يركز ويفتح ليهو بيت.

يا يابا دا يوم المنى.

كل ذلك و«سيف» غارقٌ في بحار عوالمه الجديدة... يجيبهما بابتسامةٍ جريحة... ونظرةٍ محترقة... ويعود لترتيب دولابه وتنظيم أوراقه.

جدًا يا أبوي ربنا يسهل إن شاء الله.

كان «سيف» وهو يجلس أمام كومة أوراقه... يعلم جيدًا أنه سيبيت ليلته هذه في المعتقل... وأمامه شريط تجربته السابقة... التي لم يمر عليها سوى ثلاثة أسابيع... ومازالت يده ترتجف جراء ضربها المتعمد والمستمر بعمود حديدي... حتى تغير لونها... وعلى ظهره خطوط من آثار الخرطوم الأسود القاسي الذي يستقبله ويودّعه في ليالي التحقيق الرهيبة... كان يدلف إلى غرفة التحقيق في السابعة صباحًا... لا يخرج منها إلّا قبل منتصف الليل على أحسن أحواله... يستقبل كل أنواع التعذيب الجسدي واللفظي... وبدا جسده الهزيل وكأنه خريطة ما... تتعرج خطوطها وتكثر نقاطها وشرطاتها... تبدو للمتأمل كأنها مخطوطة فرعونية قديمة... لا تكاد تقرأها ولكنك توقن

أنها مفتاح لكنزٍ ما... يذكر جيدًا حينما رفع أصبعه في وجه المحقق وقد استبدّ به الحنق والضيق من تلفيقات المحققين واستفزازهم... كيف أنهم دقوا مسمارًا عليه حتى خرج من الناحية الأخرى... وبدأوا يقهقهون من تأوهاته وألمه الممض... وأنه غاب عن الوعي لفترة... عاد بعدها ليجد نفسه محاطًا به وهم يمسكون بخراطيم المياه يوجهونها عليه... بعضها ماؤه باردًا يكاد يتساقط الثلج منه.. والأخرى ماؤها يغلي يكاد يتطاير لهبها... حتى لتكاد تتسمع وشوشة الحريق على جسده... خلعوا المسمار عن أصبعه وكأنهم يخلعونه من أي جدارٍ أو قطعة خشب... ولم يستطع الدكتور الذي أحضروه أن ينظر في وجهه وهو يوقف النزيف ويلفه بشاشٍ قديم وكأنه قد استخدم سابقًا... كان الدكتور ينظر إلى الأرض وهو يقوم بمهمته تلك... بينما لم ينتبه «سيف» لحظتها أنه زميل دراسة سابق... إلا بعد أن انتهره أحدهم.

ما تخلص شغلك دا يا دكتور... واللا خلاص لقيتو زميل؟

انتبه «سيف» لحظتها وهو في غمرة ألمه أو قل احتفالات موته تلك إلى شخص الطبيب الذي يقوم بتضميد جرحه... ولكنه اكتفى فقط برسم ابتسامة حارقة ومضى لتأوهاته...

ربّما أحسّ لحظتها بشفقةٍ مخلوطةٍ باشمئزازٍ بالغ تجاه ذلك الطبيب... فلم يهدر سوى ابتسامته تلك.

ربما خشى على نفسه من إظهار ردة فعل تكون نتيجتها كارثية كتلك التي أماتت أصبعه نهائيًا قي مقبل أيامه.

ويذكر بعدها كيف أن الرفاق في المعتقل أقاموا له حفلات من الاحتفاء النفسي والإنساني... وحاولوا بالمتاح حولهم من معدات وأدوات أن يعيدوه مرة أخرى للحياة... التي كان مجتهدًا جدًا ألا تفلت من بين يديه... وألا ينهار للحظة حتى لا يبدو على سجانه مجرد التوهّم بانتصار ما... ولكن... كان الألم أكبر من احتماله... وكان العلاج أكبر من معداتهم... ولكن الإرادة المطلقة كانت أكبر من الكون... فأورقت يده شجرة كاملة من الأصابع... رغم موت أصبعه ذلك... أثمرت ابتسامته ألف معنى للصمود والجسارة... وأينعت أغنياتهم.

«اسمعنا يا ليل السجون نحن بنريد شاي الصباح... والمغربية مع الولاد... الزوجة والأم الحنون والأصدقاء وإلى اللقاء... »

أينعت معاني جديدة لم تكن موجودة في سيرة النضال... وأبدعت لوحات من الحس الصادق بقيمة الإنسان وما يجب أن يكون عليه فهانت سيرة التعذيب... وجرّ الخوف أذياله لكونٍ آخر....

بدا «سيف» ينظر إلى أصبعه وهو يتوقع ليلته هذه... خاصة وهو يرى الأثر الذي أحدثه الإضراب الذي بدأوه... ويحسّ بذعر النظام من خلال حملته المسعورة في البطش برفاقه... ورسائل الوعيد

المسعورة والمذعورة عبر الإذاعة... ولكن كل ذلك لم يزده سوى المزيد من الإخلاص لمشروعه في مناهضة العسف والتطاول اللديح على منجزات البلاد وناسها... وكأن المخطوطة الفرعونية على ظهره بدت تفك طلاسمها في الناس... وكأن أصبعه الميّت قد أوقد الحياة في شرايين الشوارع والميادين.... وكأن تقاطعات المياه الباردة والساخنة على جسده المكدود قد أيقظت في الكون طقس الاعتدال والعدالة وقيم الإنسانية جميعها... وكأن اعتقال أخيه كرهينة لحين تسليم نفسه، قد أودع فيه سرًّا إلهيًا للتمسك بروح الانتصار والعمل على زرع العالم بورود الحرية... والتي بدت دماء أصبعه في ريّها... وخطوط ظهره في عزق تربتها.

حين تحتفي الحياة بثائر... فإنها تنثر بذور صموده، أغنياتٍ على لسان كل طائرٍ وشجرةٍ وموجة

وحينها فقط يقرأ الناس أقاصيص الحياة الممكنة... من على ظهر الموت الحقير

الحياة أحق أن تعاش حتى وإن نجح الموت.

الحياة أكبر من أوهام المـوت... والتعذيب... وأرتال القتلة الموتورين.

كلما أغلق الموت صفحة ثائرٍ حرّ... كلما تلقّفت الحياة سيرته بآلاف الصفحات من الحيوات الفارهة.

وهكذا... رتب «سيف» أوراقه... وأعصاب والديه... وبقية أصابعه لحفل المساء... ودخل على والدته في غرفتها:

يا حاجة والله مشتهي لي نومة جنبك.

تعال يا ولدي... تعال... ارقد... ليهم يوم إن شاء الله الكلاب الما بيعرفو ربنا ديل... ارقد

سحبت ثوبها من تحتها تفرشه له... وتهمهم بكلمات هامسة... لا يسمعها ولكن معانيها تسكنه... ونام... حتى لكأنه لم ينم من قبل... أي طمأنينة تلك التي يجلبها حضن أم تخترقه الهواجس والظنون والكوابيس؟... وأي خاطر يدلف للنوم وهو يهيئ أصابعه لمعركة الموت المقبلة؟

نام «سيف» في حضن الحاجة «نعمة» التي مسكت طرف ثوبها تهببه على وجهه... وتغنى له أغنيات الطفولة والشباب.. وتدّخر له أغنيات النصر...

نام وهو يعدّ نفسه للمعركة... والحاجة «نعمة» تهيّئه عريسًا عن قريب... وترى في صحوها تفاصيل ليلة احتضان ابنه البكر...

نام «سيف» وظلّت نعناعة أيامه مستيقظة تحفظ عن ظهر وعد ذاكرة احتماله وصموده...

نام «سيف» ولم تنم في جوفه أغنياته وأحلامه ولا جذوة نضاله.

دخل الحاج «حسين» منزعجًا... مرتبكًا... يصيح:

الولد دا وينو يا حاجة؟

نايم جوة، مالك في شنو؟

والله شايف لي حركة غريبة برة... وفي عربية «بوكس» جات وقفت جنب الجامع دا من قبيل.. ديل يكونوا التافهين ديل.

أصلهم ما بيخلوهو يا حاج... خليهو يكمل نومتو دي... الله يحفظو منهم المرة دي ما يعوقوه زي المرة الفاتت... الله ياذاهم الما عندهم رحمة.

صحا «سيف» رائقًا، هادئًا، أخذ حمامًا دافئًا، وخرج حليقًا، وسيمًا كما كان، طلب كوبًا من القهوة، وجلس منهمكًا في الكتابة.

كتب لأبيه، وللحزب، وللأصدقاء، ولعبير.

كان أبوه يدخل عليه بين الفينة والفينة متوجسًا، سائلًا، حاملًا كوب ماء، تمشي المهابة بين يديه، ويسكن الخوف والهلع في عينيه وقلبه، لا يكاد يراه حتى يسرع خارجًا، ثمّ لا يلبث أن يعود

و«سيف» يرفع رأسه باتجاهه مبتسمًا بهدوء غير متصنّع، ومحبّةٍ غير متكلّفة، وإيمانٍ راسخ، وجسارةٍ غير مسبوقة.

وحين رشف آخر رشفة من قهوة والدته كان قد كتب آخر ورقة من أوراقه:

ياحاج، الورق دا تقريبًا فيهو أي حاجة أنا داير أعملا، لكن مهم جدًا أنك ما تفرّط فيهو، تحتفظ بيها في مكان كويس، وبعد الأمور تهدأ

ترجع توزّعو حسب الأسماء المكتوبة عليها، وأهم حاجة ما دايركم تقلقوا خاص، دا طريق نحن اخترناهو، وكنّا عارفين صعوبتو، بس في النهاية بنصل.

جدًا، بس أنت كمان اعمل حساب على نفسك وما تقاوم الناس ديل، أنت واحد ما بتقدر على جيش، لسة آثار المرة الفاتت ما طابت.

حاضر يا أبوي

وقال باسما وبالله خلي بالك من المدام الجميلة دي، قالها وهو يشير إلى أمه التي كانت تحترق تحت هطل دموعها الحارقة ملتصقة بالجدار لا تتحرك.

دقائق من خلاصات دقائق البشرية، جرت، حين يسلم الوالدان بقدر ابنهما، ولا يستطيعان أن يغيّرا منه شيئًا.

حين يبعثان بواحدٍ للمحرقة، كي يعود منها آخر

وابن يعرف كل سيناريوهات رحلته التي يقبل عليها بيقينٍ فريد، وهو يودّ لو أنه يغوص في أحضانهما ويبكي كطفل على فراق وشيك، ولكنه يخشى أن يبدي أي ضعف تنهار على أثره مملكة صمود والده، وأعمده والدته التي توشك..

دقائق تتسارع فيها الأحاسيس فلا تعرف لنفسها تفسيرًا، ولا لمحيطها إطارًا، والأبوان يتوزعان بين أبوةٍ فاتكة، وبنوةٍ أكثر فتكًا، لا حيلة لهما في بقائه أو ذهابه، ولا يد لهم في مصيره أو مصيرهما، ينتظران

غائبًا آخر، تأخذه الأجهزة الفاجرة بجرمٍ لم يفعله.

يمسكون الحياة من أطرافها ويطيحون بها في فراغ الحياة، فترى غبار العدم يحجب الرؤية، ويكتم الأنفاس.

توضأ وصلى ركعتين، واحتضن أبويه، وخرج للدكان على ناصية منزله، اشترى سيجارته الأخيرة في الحي، مضى ساهمًا نحو الشاطئ، يتذكر أيامه عليه، يرسل أنفاس تحياته للمياه تجري غير مكترثة بدخان الأكاذيب في سمائها، غسل وجهه من النيل وكأنه يوعده بالصمود، وعاد للدكان، احتضن «النذير» صاحبه، وأشعل سيجارته وجلس على كرسيه المهمل أمام الدكان، يضع رجلًا على رجل ويطالع العربة التي ترابط منذ ساعات.

السبت 00 / 00/ 1993 م

«اعتقل «سيف الدين حسين» مساء السبت 00/ 00/ 1993 م، ونقل على متن عربة بوكس تويوتا إلى واحد من أقبية التعذيب، وبدأت حفلة التعذيب من داخل العربة، التي ألقي في مؤخرتها، يحيط به ستة رجال يحملون السلاح، يضربونه بأعقابها على مؤخرة رأسه بطيش، ثم استمر بعد وصوله مباشرة على يد العقيد / طبيب..... والرائد / ..... والعقيد / ..... وآخرين».

أغنيات الجسارة

- 1 -

أجلس على البحر وحيدًا، أمواجه تلامس أصابع قدميّ وتعود ساهمة، تعلق في الجوّ رائحة ما، تعود للمدينة وحدها، تحس أن بالهواء جيناتٍ من محبةٍ صاخبة تتنزل مع كل رشقة ماء أو رشفة ونس يتسرّب إليك مع أصوات الصيّادين المغسولة بالضحك، تتجاذبني أمطار متفرقة، وكأني من ضبط درجتها ومقدارها، تتهاتف ناعمةً على وجهي وأنا أستقبل الماء، للماء أحواله، يطوف بي في عرفانه البليغ، عند الأفق يبدو أزرق سماويًا يمنحك أمانًا عميقًا، ولكأنه يصلح جلستك فتبدو مستقرًا وكأنك أمام العالم أو وراء مقود الكون، وفي المنتصف بينك وبين الأفق يبدو أخضرَ هادئًا، صديقًا معافى، يمنحك صحة وعافية وشعورًا فريدًا بألفة المكان حتى تتخيلها أحد أطرافك، وبينه وبين نهايات الماء البيضاء التي تدخل حانة رجليك فتحسّ بخمرها نملًا على أصابعك، وتنسحب لتحضّر كأسها التالية، يبدو اللون زهريًا ناعمًا جميلًا يبعث على نضارة بديعة، فتتخيّل لوهلةٍ أن البحر أمّك، تعدّ وجبتك الحبيبة، وتمدّها نحوك بابتسامتها التي تلتصق بعينيك فلا ترى الكون إلا باقة ورد وحبٍّ وأغنيات، كل ذلك والبحر كلما توقعت ردة فعله الحميمة

هذه فاجأك بردة فعلٍ مغايرة، فلا ترى نفسك إلا وأنت بين دفّتي قصيدة تمسك على قلبك بأوتارٍ من معانٍ مستحيلة.

«بورتسودان»... «الثغر»... «البورت»... وكثير من الأسماء يُحسُّ ولا يُنطق

مدينتي الأثيرة... الآسرة..

تحتفظ لنفسها برائحةٍ خاصة، خاصة جدًا، خليطٌ من أنفاس البحر ورطوبة الجوّ العالية، وعطن الماء التي تبلّل الرمال.

رائحةٌ من قهوة السكّان التي لا تنقطع بقبقبة قدورها على النار ولا كتيت مياهها وهي ترغب في قريب امتزاجٍ مع البنّ الحبشي الفريد.

رائحة من خفّة دم أهلها وملابسهم التي لا تكاد تقطع شك نظافتها من اتساخها، لفرط ما تحمل من ألوان وروائح متداخلة.

رائحة من مباني منطقة السوق الرائعة الأنيقة البيضاء المغسولة، ومن بيوت الصفيح والخيش على أطرافها التي تكاد تقف على رجلٍ من خرافة.

رائحة الميناء الضاجّة بالحركة والسكون في ألفة غريبة، وبالنظام والفوضى في تعايش خرافي، وبالمدنية الحديثة وبدائية القرون الأولى في اتحادٍ غير منظور.

روائح تتداخل فتنتج رائحة «بورتسودان»، المدينة المعطرة.

قوارب الصيادين تتزاحم الشاطئ، تتراكم فوق بعضها، تمدّ العبارات

المكتوبة على مقدماتها رقابها للمارّين فيقرأونها رغمًا عنهم، فيدخلون في حوارٍ بديع تبرق معانيه في العيون، تتقاطع الصيحات، والقفشات، وروائح السيجار النفاذة، وكأن النيكوتين والرطوبة يخلقان أنفاسًا من لذةٍ خيالية، ومن الأحياء القريبة للشاطئ تتسابق روائح جلسات الشيشة إلى حلق البحر، وتبدأ طقوس «المخبازة» تسطو على الأمكنة عند نهايات الظهيرة، تستقبل مساءً نافذ الموز والسمن والطحنية.

الصيادون يملأون المكان بصخبٍ بالغ، ويختفون في لباسهم العريض ذي العلامات الملوّنة قُرب نهاية أرجله، والقمصان الواسعة ذات الياقات القصيرة، يحتفون بالصديري الأسود والشال الملتصق بالرأس، وكأنه جزء من الشعور الكثّة الغارقة في الزيت، يغنّون، يموتون في الغناء، فيحيون، «الباسنكوب» عندهم بداية الحياة ومنتصفها ووسادة نهايتها، هو آلة وترية تصاحب غنائهم فتمنح اللحن شحنة الدموع اللازمة وهو يغرق في الفقد والوجد والحنين، طالت رقابهم لشدّة ما يرقصون، وأخذت أرجلهم على الإيقاع فمضت الخطوات في المدينة توقّع على لحنها الأبدي الحزين، وهم في قلب حزنهم يفرحون، يرقصون على كل حال، يملأون الصناديق الخشبية المكسوة بطبقة الألومنيوم من الداخل بالسمك الملوَّن، تتداخل ألوانه، فيبدو كفراشٍ خرافي، يستنفد آخر أنفاسه فيه، يجهد أن يتقي انكسار الاحتضار بفتات الثلج، ولكن الثلج المتواطئ يسلمه إلى هدأة الرحيل.

لولا الأمل وجراحه التي لا تندمل؟...

فمنذ أن علقت السمكة في الشباك المجنونة، عليها أن تطالع قدرها بزعانف مؤمنة...

عليها أن تسكن وتستكين وتغني ذاكرتها..

كل قفزاتها العنيدة وارتعاشاتها الجارحة فقط إهدارٌ لبقايا حياة، وتفريط في بعض دقائق حيّة.

ولكن...!!

الأمل في بعض الأحيان يبدي لك أن قفزةً واحدة مثل هذه سوف يستحيل الفراغ تحتها ماءً، بحرًا، محيطًا يأخذك من ضيق اللحد إلى براح كونك السابق.

وعند هذه اللحظة فقط... يكون اللاأمل أكثر أملًا منه

على كلّ حال، سريعًا ما تموت..

ولا يموت الأمل بعدها، بل يتحوّل إلى قصةٍ أخرى تتبدى فيها قفزات أخرى.

الأمل حينًا يمنح الحياة، ويقضي على ما تبقّى من حياةٍ، حينًا آخر.

ولكنها مشيئة التشبّث باللحظة.

–

الشاطيء بكرٌ، يفعل فيه البحر ما يريد، يتمدد وينكمش، يصخب

ويهدأ، لم تتدخل المدينة في رماله المالحة، ولم تِحد رغبة الموج في الوصول إلى النقاط الخيالية، تتناثر فيه القواقع الملونة، والأصداف، وإطارات السيارات القديمة، والخطوات الضالة والمهدية، تتناثر الأوساخ وجثث الحيوانات، والأسماك النافدة، وصبية يجرون على شريط الموج المتراجع، وأغنام سارحة، تتسلى بالمشي قبل أوان عودتها للمنازل، وتحلم بفتات أعشاب فالتة.

الشاطئ في عذرية الخلق الأولى، وكأن الحكومات المتعاقبة رفعت له شعار «ماء الله، لله».

البحر أمامي..

يبدأ كمشروعٍ لا نهائيّ لحلم ما..

تتفاوت ألوانه من الأزرق إلى السماوي إلى الأخضر إلى البنفسجي، وكلّ لونٍ يأسرني لبرهة ويأخذني إلى عوالمه الخاصة.

تقف سفنٌ متفرقةٌ تمارس انتظارًا قاتلًا، يغيّر الموج اتجاه مقدمتها كل يوم، ولكنّها تستند على قوة هلب ضخم يغرس مخالبه في القاع، فلا تدري هل تحوي المسافة بين الهلب وقاع السفينة صراخ القاع من قبضة المخالب القاسية أو تأملات السفينة في خلاص وشيك؟

تبدو كقطعةٍ صغيرةٍ لا حياة فيها، لا أثر لأحلام وأشجان وشجار بحارتها الذي لا ينقطع، لا أثر لأغنياتهم الموءودة بأصوات متهالكة، ولا روح لتأملات عاشقيهم، فقط قطعةٌ تطفو على مشيئة البحر.

البعد يسلب الأشياء حيويتها، وقصص أحوالها، وتواريخ حكاياتها..

النوارس تعرف غناء السواحل واللجج البعيدة، تتقاطع في السماء تلاحق أسماكًا غائرة، أو تتصارع على فريسة عابرة، تغوص ثم تحلّق بسمكةٍ مسكينة تنظر لكونها بيأس، لم تسلم في لجة هذا البحر من منقارٍ جال جولته كلها في السماء وانتهى يمسك بأنفاسها، ويسافر بها إلى حتفها الأكيد.

النوارس ناصعة الجِدّة، لم تهترئ صفحتها البيضاء أبدًا، نظيفة على الدوام، حتى لكأنها تقطر النقاء لا الماء، يسكب الملح نصاعة بياضه على أجنحتها حين تغوص، ويسرج السماء فوانيس لمعانه فيها حين تحلّق، والغربان تخطر في سوادها الفادح على أكوام جثث الشاطئ، تنعق وتتقافز في وحشةٍ رغم كثرتها الواضحة، تتحرّش بها الكلاب لغير ما سببٍ أكيد، إلا من كُرهٍ لوجه الحياة.

يبدأ بيني وبين البحر عمرٌ من الونس..

تصل أمواجه لأصابع قدمي، وترجع بقصصها المخبوءة..

تتماسك وتتآزر جميعها وتعود أكثر عزمًا، فتصل إلى ركبتيَّ، وتعود دون قصصها المهدورة في الماء.

ابتسم لها، فهي تحكي بلغتها ما تفهمه حواسي، وتحكي بلسعها المالح على جسدي فينفتح على كل شوق، يدايا تعبثان بأكوام الرمل، أشكّله

كلّ حين، والرمال المعطونة بالملح تستثير جسمي فيدخل في أكَلَانِه الناعم على الأطراف والقارص على الروح، أتحرّك بطول الساحل، الأكشاك المتفرقة تغريني بزيارتها، وفضولي يسبقني إليها ويرتد حسيرًا من فرط فراغها المهول، الدراجات تقطع الشوارع بآثار إطاراتها، وصبية يجرون خلف راكبيها يأملون في فرصة قيادة غالبًا ما تنتهي بسقوط باكٍ، ولكنه يحمل أملًا ما في التعلم الوشيك، حيث دائمًا ما يؤمنون بالمقولة «لو ما وقعت ما بتتعلم تسوق العجلة».

المدينة غارقةٌ في حياتها الخاصة، وأنا موغلٌ في الحياة خاصّتي، غائبٌ عن المدينة الحالية، حاضرٌ في المدينة القديمة التي قطعتُ أطرافها بذاكرة من ولهٍ أكيد، «بورتسودان» البيضاء... الأنيقة... ليس لها الآن من تاريخها سوى الاسم، مضى تمثال «عثمان دقنة» الذي كان يطالع المدينة من فوق حصانه الأبيض المهيب، بعد أن كسرته الحكومة المجنونة بفكرٍ متطرف، وألصقت التهمة بمجنون، وكأنها تعرف سَوءة فكرها، مثلما كسر مجنونٌ آخر تماثيل «كلية الفنون الجميلة» بالعاصمة، ومثلما اغتال مجنون ثالث فنانًا جميلًا، جالسًا في فناء «اتحاد الفنانين» يوقّع بأنامله على لحنٍ جديد، عاجله المجنون بسكينٍ صدئة تخفي سرًّا يخيف عقلاء الحكومة.

وكأن مجانين البلاد لا يغتالون إلا فنونها وفنانيها.

المباني البيضاء الناصعة التي تحيط بحديقة البلدية، تجرأت الأيام

عليها فبهتت، وعادت بلا ألوان، وحديقة البلدية نفسها نامت عن خضرتها واستسلمت لطارق الموت البطيء، والطريق الآتية من بوابة السكة الحديد التاريخية التي تقود إلى موقف المدينة الكبير، بدت وقد نما شعر غير مرغوب فيه على وجهها، وأهلكتها حبوب الكهولة والعجز، وتناثر المتسوّلون على جنباتها ينهشون أكياس القمامة وتنهشهم، والمدينة بلا حسٍ تطالعهم جميعًا بعينين زائغتين.

«إبراهيييييم».... أصرخ

لم يلتفت الشاب الذي مرّ أمامي بالدراجة، أصرخ ثانية

«هجّان»... «هجّان»

يلتفت صوبي وهو ماضٍ في دراجته، ولكنه يشهق وهو يستدير بدراجته بسرعةٍ تسقطه على الرصيف، ويقف فاردًا ذراعيه وهو ينادي:

«تاج السر»؟ ويعقبها بصراخٍ ضاحك:

البحر رفقتي ووادي... وعلى يديه نبتةٌ من هوايا

موجه والرمال بلادي... وطيره المستحيل سمايا

بيننا كتبُ وتواريخ تنادي... بيننا عشقٌ من رذاذ البداية

أنت لسه متذكر؟ قلتها وأنا غارق في أحضانه وضحكاته واهتزازات جسمه التي تنبئ عن فرحه اللا محدود، كان «إبراهيم هجّان» حين يفرح يهتزّ كطاحونةٍ عتيقة.

غُصْنَا في التاريخ والذاكرة، ولم ندرِ كم من الوقت مرّ ونحن نحيط

المدينة بحكاوينا وذكرياتنا، قرب الدراجة وهي لم تزل على هيئة وقعتها الأولى.

–

تداهمني نوبة برد مفاجئة، تصطّك أسناني، وتبدو لي البطانية التي باتت لا تفارقني وكأنها حقل ثلج، عظامي وكأن مجنزرةً تمرّ عليها، حتى أسمع تكسّرها وإعادة تجبيرها، وأطالع استعداد المجنزرة للمرور عليها من جديد، أتعرق بدرجةٍ أصبحت رائحتي معها كنحاسٍ مطحون، أو كبقايا فاكهة فاسدة فُتحت لوهلة وسال خيط عطنها في جسدي، فتحوّل إلى جسدٍ لزج عطنٍ متعفن، ولكن لسيرة «سيف» روائحها البديلة، وضمدها الأبَدي الذي يستهين بالألم، فأبدو وأنا أطالع وجهي في زجاج النافذة المظلّل، وسيمًا ناصع الابتسامة، وكأني خرجت لتوِّي من فيلم ردىء الإخراج.

أن تعبأ بالألم وتستسلم له.. تضيّع عليك لذة المقاومة، وتغادرك لحظات النصر الباهرة

النصر أن تقرأ قصصك التي رسمت سيناريوهاتها في مخيلتك، ونزفت أحبارها من دمك، وعَرقك، وأغنيات حماستك، وأنت تمسك قلبك قلمًا، وتطرح مشاريع قضيتك ورقًا، ومسرحًا.

كلّما لمعت في عيني لحظة ماضية، عشتها على وقع يقيني وإيماني

العميق بما أرسم له، سافر الألم بعيدًا بعيدًا، فقط تعودني منه أصوات قطاراته تهدر في دمي ماضية، ماضيةً صوب أبعد محطاتها مني، وأقربها لعظامي التي يعود دقيقها إلى هيئته الصلبة من جديد، ويتسمّع أصوات المجنزرات، ولكني لست هنا..

أنا لست هنا

أنا هنااك

في غرفة الذاكرة البيضاء، المضيئة، الخالية من الأسلاك، وعبوات الأدوية المتقاطرة عبر الأنابيب المتداخلة، ملاءاتها بالغة الجِدة تغرق في الهدوء المميت، وترحل بي إغماضة زرقاء في عوالم من روح، ربّما يسمّيها الطب غيبوبة، ولكنها غيبوبة تنظر وتسمع وتعي كل ما حولها، ترى «ابتسام» في نصاعة حزنها، كلما بهت لونها، كلما استحالت حبيبتي التي كنت أنشد لحظة التقاء عينينا وسط زحام الناس، كانت كلسعة كهرباء تخترقني، لا يعيدني منها إلا انتباهة أصدقائنا الماكرة، كقطعة خشبٍ لديحة تعيدني من كون لسعتها.

غيبوبة تطالع خطوات الأهل والأصدقاء يراوحون حول النافذة في توتر واهن، وهم يتحاشون النظر صوبي، أنا أراهم خضرًا وبيضًا وبكل الألوان، وأرى أغنياتي التي أحبوها سابقًا تحلّق حولهم، حتى ليكادوا من فرط التصاقها بهم يرقصون.

غيبوبة تمسك بيد «سيفي» الصغير وتقوده إلى حيث قضبان قطاري

الذي مرّ حاملًا الآمال والأحلام والآلام، وتجلسه في غرفة القيادة وأمسكه المقود، ليطلق صافرة انطلاقه مبتسمًا لي، ابتسامةً تخلع عنّي كل إبرة وتزيح عنّي كل سلك، وتقذف بي صوب عالمٍ من أغنيات طاعمة اللحن والبهار والموسيقى..

أنا هناك

–

جلسنا حتى غابت شمس ذلك اليوم على أحجار الشاطئ نغني، قرأ لي «إبراهيم» بعضًا من أشعاره، وحدّثني عن المدينة، وعن لياليها، وعن الأصدقاء، وعن صباحاتهم..

حركة الـزوارق المنتظمة تفرض إيقاع البحر وتصيب الشاطئ بالصداع، البحر ليس مرّا هنا كما كان يتخيّل لي، وفق ما أرى من استمتاع النوارس بالقفز والطيران المنخفض والمشي عليه، أو ربما يبدو لها مملحًا لطعم الأسماك الصغيرة المتقافزة، يتكسّر الموج عند أقدامنا، وأنا أغنّي «لإبراهيم» الساهم في سماوات الذاكرة والأحداث، بيني وبين البحر عشقٌ قديم، أبواق السفن تقاطع اندماجي في الغناء، ولكنها تبدو منسجمة الإيقاع.

أجمل لحظات تعرفها السفينة هي لحظات الرسو، البحّارة يتسارعون نحو مقدمتها ومؤخرتها لا تسمع أصواتهم ولكنك تستطيع أن تحدد نوع

حوارهم.

غريبٌ زمن الرسوّ، غريبٌ وقت أن ترمي حبالك عند مرفأٍ قديم أبحرت عنه طائعًا، لا شيء يفسّر لهفة البحّارة للرسو غير لهفتهم ذاتها، يتجددون بالأرض بعد عطن البحر والسماء، غريب أن نرسو نحن للبحر نغنّي، ويرسون هم لليابسة يغنّون كذلك، لا أحد يركن لكونه، لا أحد

نحسد تقافزهم على سطح السفينة، ويحسدون جلستنا على أحجار المرفأ، نحسد سفرهم المستمر ويحسدون إقامتنا الدائمة.

الطيور تكثر عند سفح «الصومعة» العملاقة، تتحاور في عالمها الخاص، لا تلتفت للسفن وأبواقها وصياح بحّارتها، ولا تحسّ بخطوات الذين يتمشّون على الساحل، ولا تركن لاندفاعة زورق صغير يغيّر لحظة صمت المياه بصخب مباغت، تتسابق على التقاط حبوب القمح على الرمل وعلى وجه الموج المتصاعد وفق حركة الميناء.

تحركنا باتجاه السوق، كانت المدينة تحتفظ بقدر كبير من نظافتها في الطريق الواصلة بين الشاطئ ومركز المدينة، الأبنية في بياضها الأنيق، والمطر في ونسه الدائم معها، يرسم أقواس قزح على الزجاج المغسول، يحدث صوتًا أليفًا حين ملامسة حبّات المطر للأشياء في الشارع، تحس كأن القصائد هي التي تتساقط لا المطر، وكأن الأشجار تضحك وهي تنحني ورقةً ورقة تحت لمس الرذاذ المتساقط، لا أثر للمطر على

الأسفلت سوى خطوط باهتة للماء تجرى لوهلةٍ وتتقطع إلى خيوط صغيرة من ضوء، والشارع الدائري الذي يمرّ من أمام «الركن الهادئ» و«مسرح الثغر» الأندية، «النادي العالمي»، «نادي الشرطة»، «نادي الموانئ»، «النادي القبطي»، «نادي التنس»، «نادي العمّال»، يغرق في إضاءة باهرة، عبرناه أنا و«إبراهيم» على أرجلنا، ودلفنا باتجاه السوق الكبيرة، عبرنا كذلك «حديقة البلدية»، حديقة العشاق الأبدية، طالتها يد الإهمال ولكن العشق ما زال يعلق على أركانها كلها، قطعنا الشارع القادم من «جسر الديوم الشرقية» حيث بدأت الحركة تصحو، والحياة تعود، والصخب يتسرّب رويدًا رويدًا إلى مفاصل المدينة، دخلنا بعده إلى «دكاكين» البهارات القديمة، قديمة قدم البهارات نفسها، أزقّة وكأنها بُنيت من الهيل والزنجبيل، وكأنها طُليت بأنفاس اللبان وورق الغار والقرفة، حتى الرجال الذين تطلّ أشنابهم المقصوصة ناعمًا البيضاء من داخلها، تبدو سحنتهم أقرب للهنود، ولكنّ فيهم مّلحة الشرق وأهله وملامح وسامتهم، تقودك لتواريخ تأسيس هذه التجارة في هذه السوق، تتداخل الروائح، فتتقاسمك رغبات في العطاس والتنشق والمضغ، ويتثاقل جسدك جدًا أمام الكراسي القماشية الوثيرة التي تتناثر أمام المحلات لنومة خرافية، لا تصحو بعدها إلا وأنت شجرة محلبٍ عتيقة هرب الكون من تحتها، وتركها للون والرائحة والطعم، تكتب كتبها وتقرأ أسفارها في ولهٍ مبين.

تسكن الروائح والنكهات ما بين الياقة والحلق، والأنوف، تتداخل معها حلوى «شلاتين وحلايب»، أكوام كراتين الشكولاتة والبنبون تطبع الأزقة بسحر خاص، أزقة تخرج عنها شبِعًا، جائعًا، وعند نهايتها وأنت متغوّل صوب ساحة الموقف الكبرى، تشتعل قهاوي النرد والشاي السادة، والشيشة، تسمع كركرتها المنتظمة قبل أن تراها، وتسكنك رائحتها الباردة الثقيلة، فتبادل ناشقيها السعال ونمل الرأس، ولكن ليس لنا مساندهم التي يلاعبون فيها النمل والنحل فيتقافز من رؤوسهم صوب ألسنتهم، فتتطاير القفشات والضحكات.

الحصى يرصف ممرات السوق، والرطوبة تثقل حركة الرمل فيتماسك، تحس كأن المباني تذوب من أركانها وتتحول إلى رمل هش بفعل الرطوبة، يزول لونها، ويغادرها لون طلائها مرغمًا، فقط تبقى سطوة الماء والطحالب.

جلسنا للشيشة، تحت إلحاح روادها الذين تباروا في الاحتفاء «بإبراهيم»، حتى استدعى كل تواضع الكون وعاجلني.

نحن ولاد البلد دي ياخي... ثم استجاب على طريقته في مبادلة الترحيب واسترخى على أول طاولة وبدأ يكركر بلا مبالاة.

تاه مني لوهلة تحت هالة الحوارات التي انفجرت عن كرة القدم و«الهلال» و«حي العرب» وذكريات «المسطبة العجيبة»، ومضى زمن ليس بالقصير ونحن نستبدل حجرًا بحجر، وتفاحًا، بكمثرى، وجمرًا

بجمر، حتى طوى خرطوم الشيشة على رأسها المنشوق وقال:

اسمع، قوم أنا الليلة حا أعرفك بي زول غريب.

لا ياخي الليلة خليني، أنا ما كلمت ناس البيت وما مرتب نفسي على برنامج و.... قاطعني

يازول قوم أنت لسه ما خليت حركاتك دي؟ والله حا تلاقي شاب الليلة حا تتمنى لو إنك لاقيتو من عشرين سنة...

وبدأ يحكي عن هذا الشاب بطريقته التي أعرفها عنه، تتحدث كل أجزاء جسمه، يحدثك وكأنه يقفز في حقل شوك، يهتز وهو يضحك، حتى تغيب عيونه تمامًا، ويجلس في منتصف حديثه لفرط رغبته في الطيران، فيبدو لك كطائرٍ تحاملت السنوات على جناحيه فوهن، ولكنه يحنّ إلى زمان طيرانه.

شاب عجيب، جاء من العاصمة ليسكن مع أقاربه خلال فترة امتحانات الثانوية العامة ، وخلق حالته العامة في الحي والمدرسة والأصدقاء ، لا تحسُّ أنه غريب ، يحفظ المدينة عن ظهر حُب ، يحدثك عنها وكأنه ولد فيها ، أو كأنها ولدت فيه ، كنت حين أداعبه مقاطعاً أثناء محاضراته الدائمة عن الظلم الاجتماعي وحتمية الثورة المجتمعية

– انت يا «سيف» ساكن في «حي الخليج» وهو أكثر أحياء المدينة دعة ورفاهية ، وجاي تكلمنا عن الثورة الاجتماعية ؟ طيب لو سكنت في «مايو» تعمل شنو ؟

كان يقول لي باسماً ، وكأن كل حرف في كلماته يخترقني اختراقاً، حتى اتحسس صدري

– الثورة ما عندها مكان غير القلب ، والعقل السليم، الأماكن أدوات ومواعين للتجربة لا أكثر ، وبالعكس لو عشت في أحياء فقيرة ربما بدت ثورتك وكأنها انتقام ما ، ربما افتقدت الانحياز الفطري للقيمة ، ربما !

الثورة الآن تسكن «حي الخليج» وقلبي وعقلي ، وكل أحياء المدينة، وبالمناسبة شاعر خطير، ممكن تلحّن ليهو كم عمل وتشجينا، قالها وهو يغمض عينه ويضحك.

تتذكر «ياسمين» الكان بتقول ليك أشجينا ديك؟ ويغرق في ضحكاته التي لا تعرف حدًا أو قيدًا.

والله يا «هجّان» أنت الواحد يغيب منك خمسين سنة يجي يلقاك في أمورك دي؟ «ياسمين» منو ياخي؟

«ياسمين» منو؟ بكرة بلمّك فيها وبكلما كمان، يا سلاااام ياخي زمن عجيب.

بدأ يحكي لي عن الشاب الذي سوف أقابله، يغني أكثر منه يتحدث، لم أرَ مثل الزهو في عينيه ومثل الومض في لسانه ومثل بحار الكون في مشيته، حتى تمنيت أن نصل لنرى هذا الشاب.

كنا عدنا أدراجنا صوب مسرح الثغر.

دي أحسن طريقة تعرف بيها «سيف» الكلمتك عنو، الليلة توزيع الجوائز في مهرجان الإبداع الطلابي، و«سيف» فاز في مسابقة الشعر، وحا يقرا القصيدة الفائزة، وبعد ينزل يسمعك تغني، وأطلع أنا منها، ويضحك وهو يسحب أرجله على الأسفلت المبتل.

كنت قد سمعت بهذا الاحتفال لكنه لم يشغلني لأني لا أعرف أحدًا بالمدينة، ولكن بعد أن تلتقي «إبراهيم» فأنت تنشغل بكل المدينة، وتنشغل كل المدينة بك.

إنه كتابها المفتوح، وحرفها الصاخب، وجنونها المتعقِّل الذي تشتعل فيه فتيلة العشق والذاكرة.

«مسرح الثغر» ممتلئ عن آخره، كعشقٍ يتنزل على عيون حبيب ذات لقاء مستحيل، فيثقل خطوه ولسانه، ويفتح كل الأبواب أمام ضجةٍ ترى ولا تسمع.

أنفاس الناس تضفي دفئًا على المكان، تهدره حبّات المطر لوهلة ولكنه يعود.

أخذنا مقاعدنا بمنتصف المسرح، الزحام في أشده، وبائعو قصب السكر والقهوة والشاي يمرّون بين المقاعد، وتتقاطع الأصوات، وصراخ الصبية، وقهقهات الرجال، توقف المطر ولكن روائحه لم تزل، المسرح على الشاطئ تمامًا، كل حركات البحر وكأنها جزء منه، تبدأ عنده الأصوات ولا تنتهي.

اختار «إبراهيم» هذه الطريقة المهيبة للتعريف بيننا «سيف» وأنا..

«بورتسودان» المدينة الوحيدة التي لا تترك أحدًا خلفها في مناسباتها جميعًا، يأتي عمّال الميناء والموظفون والطلاب والأُسر والمحبّون، والأطفال، لا يغيب أحد، المدينة وكأنها مغسولة بحبٍّ قديم، تمسح عينيك فيها ألفة الريف وتمرّد المدن، تكتب على مداخل شراييناك دمًا جديدًا يحنُّ إليها وأنت فيها، ويحنّ بك ومعك وأنت خارجها.

المسرح يضيق بالناس ويتسع بقهقهاتهم وأصوات ونسهم، في انتظار بداية الحفل والذي يحضره والي الولاية وكبار موظفيه، أتلهّى أنا بالنظر للفتيات اليافعات كحقل ياسمين يانع، تغدق عليه السماء بالنسيم فيفوح، تحلّق البالونات فوق رؤوس الجميع تكاد تغني من شدّة احتفالها باليوم، الفتيات ورغم أنهن يلبسن الزي المدرسي الموحد، إلا أنهن يتبارين في الألوان والتأويلات، تحسّ كل واحدة منه بلونٍ وطعم ورائحةٍ مختلفة، تشرب من ابتساماتهن الموزعة في الجو نخب ألف أغنيةً وكأس، تنتبه لنفسك موغلًا في عين أو غارقًا في خصر أو تائهًا في قوام، فتتنحنح بلا داعي وتلتفت باحثًا عن شريكٍ في المحبة، يُجدن العزف على لحون الحسن حتى تطقطق أصابعك، ويضحكن على أنفاس الجمال حتى لتبكي وأنت تضبط قلبك منشغلًا بخفقانه عنك.

يأتيك صوت المذيع الداخلي بعد بداية الحفل منذ زمن أنت خارج أسواره:

والآن نستمع للقصيدة الفائزة في المسابقة بعنوان الأم، والطالب «سيف الدين حسين».....

أقفل عائدًا من رحلاتي كلها للمنصة التي بدأت في كامل انتظارها لهذا «السيف» الذي أشهره «إبراهيم» في وجهي، حتى لم أعد أقوى على الانتظار.

يدلف إلى خشبة المسرح شاب أنيق، نحيل، ليس طويلًا ولكن يبدو لفرط نحوله طويلًا جدًا، يمسك بلفافة ورق بعناية، رفع يده محييًا الجمهور، ثم طفق يعدل في وضع المايك أمامه، ريثما تنحسر الأصوات بالمسرح، ثم بدأ يتحدث بهدوء واثق:

أنا ممتن جدًا للجنة التحكيم، وممتن أكثر لهذا الحضور الكبير، الحضور الذي يمثل مدينتي الحبيبة، وبما أن القصيدة الفائزة تخصّ الأم، وبما أن أمّي حضور في هذا المسرح مع أمهاتي الأخريات، خالاتي وجداتي اللاتي يملأن جنبات هذا المسرح، وبما أننا كلنا في حضرة أمنا الكبيرة «بورتسودان» الحبيبة، اسمحوا لي أن أقرأ عليكم قصيدة أخرى، لأمهاتي جميعًا، وآبائي، والمدينة، والسودان كله..

كانت الهتافات والتصفيق تقاطعه بحماس بالغ، ربما أرادت لجنة الاحتفال أن تستغله لوهلة

أفرد لفافة ورقه أمامه، وأمسك بالمايك في يده، وبدأ يقرأ في قصيدته « الأمير»، كان يتصعّد مع الإلقاء، وحماسة الجمهور، وكدت أنا أطير من

على الكرسي، ولم أنتبه مطلقًا للحركة الغامضة التي بدأت تظهر في منصة الوالي وكبار موظفيه، ولا في الحركة المتوترة البادئة خلف الكواليس، والتي كان «إبراهيم» يقرأ فيها حرفًا حرفًا..

«الأمير» ميكافيللي، القصيدة التي طُفت معها في عوالم جدا لهذا الشاب الواثق العارف الجميل، كانت قد أحدثت هرجًا مكتومًا وكثيفًا بين أعضاء اللجان المنظمة وطواقم حراسة الوالي، دخول وخروج كثيف ومتصاعد، بدت تظهر ملامحه على بالونات المسرح الملوّن، وأنواره المرتبكة، و«سيف» يغمض أشواقه ويلهث وراء أمانيه، تلاحقه الهتافات المدوية والتصفيقات المتحدية، التي شكّلت له حماية ودافعًا، بدأ نسقها يزداد، وحماستها ترتفع، وثقته في نفسه والحضور تكاد تشقّ قبّة السماء.

أكمل الوالي الحفل، بعد همسٍ طويل توقّفت معه فقرات البرنامج لفترة ليست بالقصيرة، يبدو أنه أخيرًا اقتنع بمواصلة البرنامج حتى لا يسيل خروجه حبر المدينة، والذي قد بدا فعلًا، ولكنه لن يقدم الجوائز، لشعوره بالإرهاق جرّاء اليوم الطويل، كما أعلن مقدم الحفل الذي بدا واضحًا أنه استنفد أغراضه، أنا ممتلئ بالقصيدة، وبصاحبها الجريء، و«إبراهيم» يراقب الأبواب بتوتر واضح وقلق أوضح، كنت أتحيّن نهاية الحفل لبدء علاقتي بهذا «السيف» بعناق حميم، ولكن «إبراهيم» أثار مخاوفي وهو بعد يتلفت يمنة ويسرة بريبة أكيدة.

عارف المجنون دا الليلة ما حيخلوهو.

التفتُّ إليه، وقد تجمعت الأحداث بصورة متسارعة في ذهني، وقرأت من نفس سطور «إبراهيم» للحظة، وأيقنت فعلًا أن اللقاء مستحيل الليلة ولكنّي تماسكت وقلت:

ليه؟ مافي حاجة ظاهرة، أهو البرنامج مستمر والوالي نفسو قاعد، ما أظن ما أظن تحصل حاجة.

لم يجبني «إبراهيم»، ولم أنتظر إجابته، سبحت في غياهب الليلة المجنونة تلك، أنسج أقاصيص وسيناريوهات محتملة لما يمكن أن ينتهي عليه الحفل.

خرجنا، «إبراهيم» وأنا، وحيدين، صامتين، لا تسمع نأمة بيننا، برغم خروج روّاد المسرح وضجيج الشارع حينها، كلٌ يفكّر بطريقته، والمحصلة تلتقي عند اختفاء «سيف».

–

لم أحفل كثيرًا بجيش الأطباء والممرضات حول سريري، كنت أسمعهم وكأنهم يتحدثون في مدينة أخرى، لا أكاد أتبينهم، ولكني كنت أحفل بدمعة «ابتسام» على خدها خارج الغرفة، كنت أحسّها وكأنها تسيل على قلبي، هادئة، مسرعة، حارقة، مالحة، أسمع صوتها وهي تلتصق بالقلب وأشمّ رائحة شوائها، وأحفل بجمر عينيها المتورمتين،

كانتا حين أول لقاء كعصفور برّي لا تعرف هل تنشغل بألوان جناحيه عن صوت غنائه الجميل، أو تستسلم لقفزاته الرشيقة على صحن قلبك، يلقط منها حب الوداد المستديم.

يعالجون نزيفًا في فمي، جرّاء الأجهزة المتكاثرة عليه، وأسناني تصطك اصطكاكًا مؤلمًا وكأنّها أزاميل من نار تغوص في فكّي المنهكين.

قيمة الألم تتضاءل أمام قيمة الأمل، لا الأمل في الحياة، ولكن الحياة في الأمل، هذا سر عرفاني خطير، لا يتبدّى لك إلا بالتجربة، تجربة الموت حولك، وبين يديك، تمنحك أبعادًا جديدة لقياس المحبّة والجمال والعيش.

لم نلتقِ « سيف» وأنا إلا بعد ثلاثة أشهر، واحتضنته كصديقٍ قديم، واحتضنني هو بمحبة الرفاق النبلاء الذين كلما تقادمت بهم السنون زادتهم جِدةً وبريقًا.

ياخي والله كلمني «هجان» عنك، لكن البيخلينا نتلاقى منو؟ قالها ضاحكًا، وهو يغمض يده اليمنى ويفتحها، كانت وكأن بها رضوضًا ما، ولكن لم يكن يعرف الشكوى.

تعرف، أنا متأكد من إنو العملتو يوم الحفل كان فيهو شبهة استغلال ما، انتهازية ما، لكن كمان تشوف أمهاتك وأبواتك قدامك، يتطاير بيناتم الغبن والظلم والهوان من الغازين الجدد، وتستكين وتمشي حسب البرنامج الموضوع دي ما قدرت عليها، وأنا كنت عارف النتيجة حا

تكون شنو، لكن أهو أنا أسي قدامك «شديد ولضيض» كما تقول حبوبتي. وضحك ضحكة صغيرة

يا «تاج السر» ياخي البلاد دي مسكينة، ممكونة، وكنت حاسي إنها حا تكون أشد ألمًا وانكسارًا لو استجبت للجنة وقريت القصيدة الموضوعة في البرنامج ونزلت، لو ما اتمرّدنا نحن على القيود الحا يتمرد منو؟

كنت مأخوذًا أسمع ولا أجيب، أطالع المكان حولي، أجهش بصمتٍ باكٍ، وأتامل في كلماته الواثقة التي خرجت يومها، والتي تخرج الآن، فأمسكت بالعود وبدأت الغناء.

الغناء هو نجمتنا في هذه الصحراء المترامية، تنير لك، تهديك الطريق، وترمقك خلسة بنظرةٍ فيها من الحبيب رسالة، وفيها من الشجر والثمر مقاطع ودٍ حبيب، وفيها من جيوش المحاربين على القضايا إشارات ومفاتيح لعمل أكيد قادم.

الغناء ساحة الحرب ضد التعتيم

الغناء منديلٌ أبيض منقوش على جانبه مفتاح الحياة، للحبيب قلبه، وللمحارب بندقيته، وللمناضل منشوره، وللمظلوم ميزانه ورمانة حقوقه.

بدأت أغني و«سيف» يسمع مشدودًا ومشدوهًا في آن، يغنّي معي مرّات بحماس، ويترنم بشفتيه فقط مرات، ويسمعني ساهمًا سارحًا أغلب الوقت.

- 2 -

طرقٌ على الباب، يزداد إلحاحًا كلما تجاهلته، منذ فترة وبعد أن داهمني المرض، ومضى «سيف» لعوالمه بدأت حياة أشبه بالعزلة، المكان مسوّرٌ بوحشةٍ لا نهائية، والعود معلقٌ أمامي على مشجبه، باهتًا مكسور الخواطر، الظهيرة تفعل فعلتها كلها، عرق ولزوجة لا تنتهي، وذباب متماوت يصبغ بلداحته كل شيء، والكهرباء كأنصع عاداتها غائبة منذ يومٍ ونصف، تبدو المروحة كمزارع ينتظر بذورًا من مستحيل، ليزرع حقول الممكن اليابسة.

والطرق مستمر في انتظامه على الباب، كان «سيف» يرمقني من خلف إطاره المترب على الحائط، بنظرته الواثقة، وأنا في غيابة عوالمي القديمة أحادثه صباح مساء عن الماضي والحاضر وأعده بالمستقبل ، مسحت بطرف كفي بعض غبار علق على الصورة في واجهة البهو وأنا في طريقي نحو الباب، وكأنه سألني سؤالًا ما، واصلت خطواتي نحو الباب وأنا أجيبه بهمهمةٍ مفهومة ومبهمة:

مرحب عليكم السلام ورحمة الله وبركاته

ياخي دا مش منزل الأستاذ «تاج السر»؟

مرحب والله، معاك «تاج السر»... اتفضل

لسعتني نظرته المتمعنة في المكان حوله، ودخلنا دون أي كلمات..

أنا كت مع الشهيد «سيف» في آخر أسبوعين بـ«بيت الأشباح» بتاع الخرطوم غرب، كلمني عنك كتير، وطلب مني أسلمك الورقة دي، إداني ليها في آخر أسبوع، قبل ما تسوء حالتو في الأيام الأخيرة بالتعذيب المتواصل وينقلوهو للمستشفى.

ودي أوراق إداني ليها صديق كان على تواصل مع طبيب حاضر لحظة وصوله المستشفى ولحظة استشهاده، وتداعيات ما حدث.

.....

البركة فيكم يا أستاذ، «سيف» فقد كبير، ولكن بمواصلتكم النضال سنحقّق له أحلامه وتطلعاته كلها، ثم صمت قليلًا وأردف: حقو في رقبتنا كلنا.

ومضى الرجل بعد أن تمزّق وتناثر، ونزف كلمات لا كالكلمات، وعزف فجائعه كلها وجساراته، لا أذكر حتى إن كنت قد أوصلته الباب.

كان طويلًا فارع الطول، أخضر يميل للسواد، وجهه طويل نسبيًا، وقد زادته الصلعة طولًا، الشعر حول الصلع كثيف، وعالٍ، حتى لتبدو لك الصلعة كمجرى عميق، إحدى أسنانه مكسورة بصورة

مائلة، تفتح مساحة مثلثة بين أسنانه، كان برغم قسوة الوضع، وجسامته هادئًا ومتماسكًا، لم يكلّفني سوى الاستماع إليه، كان مرتبًا بدرجة لم أحتج معها لسؤال، قاسمني الفقد ومضى.

جلست لفترة طويلة جدًا بعد خروجه، غارقًا في الدمع والعرق، واجمًا لا أفعل أي شيء، ثم انتبهت فجأة لخروجه، وأنا متسمرٌ في مكاني، خرجت متثاقل الخطوة، فتحت الباب ولكن لا أثر له، وللحقيقة فإن الزمن الذي بقيت فيه بعد خروجه تكفي لاختفائه، ورغم ذلك خرجت ماشيًا لمسافة، وعدت..

كانت الأوراق التي جاءني بها مطبوعة على آلة كاتبة، شعرت وكأنها نسخة، ربما احتفظ لنفسه بنسخة أخرى، فتحتها، وبدأت أهتز اهتزازا مرًّا وأنا أقرأ.

(1)

«أنا «سيف الدين حسين» أسرتي بحي الشجرة بالخرطوم، ظللت أتعرض للتعذيب المتواصل ومنذ ما يزيد على الشهرين حتى الآن، بدون أي بادرة تشير إلى احتمال توقفه، وأعتقد بأنني قد أشرف على موتٍ أكيد، ويبدو أن ذلك هو الهدف الذي يسعون إليه، حيث لم يجرَ معي أي تحقيق منذ وصولي أو توجيه اتهام محدد، ولكن ذلك لن يكون سببًا في التنازل عن الأفكار أو الطريق الذي سلكته بإيمان كبير ويقين لا يتسرب إليه الشك، ولن أتراجع عنه حتى وإن كانت النتيجة

موتي، والذي بدأت متأكدًا من بداية حدوثه، أوجه رسالتي هذه لكل الرفاق وأبناء الوطن الحبيب، إننا وقود هذه الثورة، فموتي هو بداية الطريق للحياة الكريمة، وأنا واثقٌ في سيركم على ذات الأهداف حتى الوصول إلى نهاية هذا الدرب».

(2)

«حوالي الساعة الخامسة فجر يوم السبت 00 / 00 1993 م، فاضت روح الشهيد «سيف» الطاهرة، في قسم الحوادث بالمستشفى العسكري بأم درمان، نتيجة التعذيب البشع الذي ظل يتعرض له خلال فترة اعتقالٍ وصلت إلى الشهرين، منذ اعتقاله من منزل أسرته بحي الشجرة، مساء الجمعة 00 / 00 / 1993 م، وظل جثمانه مسجى على أرض المستشفى لأكثر من خمس ساعات نسبة لحالة الارتباك التي سادت في أوساط إدارة المستشفى، وأعضاء دائرة التعذيب التي جاءت به».

(3)

نقل الشهيد «سيف» فجر يوم السبت 00 / 00 / 1993، إلى السلاح الطبي وهو فاقد الوعي تمامًا، وربما كان توفى فعلًا، وقد التقينا أحد الأطباء بالمستشفى ليصف لنا هيئته حال وصوله للمستشفى، فأجابنا قائلًا: «إن حالته لم تكن حالة معتقل سياسي أحضر للعلاج، وإنما كانت حالة مشردٍ جيء به من الشارع، لقد كانت حالته مؤلمة،

وأنا كطبيب ما كنت لأعرف من أين أبدأ معه، كنت متأكدًا تمامًا أنه كان قد مات قبلها بأكثر من ساعة، ولكنهم كانوا يصرّون أنه علي قيد الحياة، وفي غيبوبة فقط، وإنني مستعدٌ أن أشهد بذلك في أي تحقيق قضائي يتم إجراؤه».

(4)

«بعد ظهر نفس اليوم أصدر طبيبان من أتباع النظام، تقريرًا عن تشريح الجثمان أوردا فيه أن الوفاة حدثت بسبب «حمى الملاريا» واتضح لاحقًا أن الطبيبن أعدا التقرير إثر معاينة الجثة فقط، ولم يجريا أي تحليل أو فحص، وبعد اجتماعات متواصلة للقادة الأمنيين صدرت التعليمات بدفن الجثة دون اتباع الإجراءات القانونية اللازمة، وموورست ضغوط متواصلة لحمل ضباط القسم الجنوبي وشرطة الخرطوم شمال على استخراج تصريح لدفن الجثمان، وتمت محاولة إجبار أسرة الشهيد على تسلم الجثمان ودفنه، وهي محاولات قوبلت برفض قوي من والد الشهيد وأسرته التي طالبت بإعادة تشريح الجثة بواسطة أخصائي الطب الشرعي وفق المادة 137 (إجراءات اشتباه بالقتل)، وطبقًا للتقرير الذي صدر عقب إعادة التشريح، ثبت أن الوفاة حدثت نتيجة «نزيف حاد داخل الرأس بسبب ارتجاج في المخ ناتج عن الارتطام بجسم صلب وحاد».

وعندما كان جثمان الشهيد «سيف» مسجى بقسم حوادث الجراحة

بمستشفى السلاح الطبي بأم درمان سجلت حالة الجثة كما يلي:

مساحة تسع بوصات مربعة نُزع شعر الرأس انتزاعًا

جرحٌ غائر ومتقيح بالرأس عمره ثلاثة أسابيع على وجه التقريب.

انتفاخ في البطن والمثانة فارغة، وهذه مؤشرات على حدوث نزيف داخل البطن.

كدمات في واحدة من العينين وآثار حريق في الأخرى بأعقاب السجائر».

(5)

»استمر تعذيب «سيف» خلال كل الفترة التي فاقت الشهرين متنقلًا بين «بيوت الأشباح» الموزعة بين مركز مدينة الخرطوم، وأطراف مدينتي الخرطوم بحري وأم درمان، ولم يتوقف مطلقًا، بل وكانت وتيرته ترتفع يومًا بعد يوم وتزيد بشاعة وقساوة وضراوة، الأمر الذي أدى إلى إصابته بضربات في رأسه تسببت في نزيف داخلي حاد في الدماغ تدهورت على أثره حالته الصحية بصورة مريعة، وكانت التقارير الطبية التي صدرت في وقتٍ لاحق قد أشارت إلى عدم قدرة «سيف» على الحركة جراء كل تلك الممارسات البشعة التي مورست ضده، وقد حُرم في بعض الأحيان من الأكل والشرب، وحُرم أيضًا من النظافة والاستحمام طوال فترة الاعتقال، وقد أكد لنا معتقلون آخرون كانوا في نفس «بيت الأشباح» الذي نقل إليه،

أن «سيف» كان قد أصيب إصابة بالغة نتيجة الضرب الوحشي الذي تعرض له مساء نفس اليوم الذي جرى اعتقاله فيه، وأصيب بجرح غائر في جانب الرأس جرت خياطته في نفس مكان التعذيب، ودونً أي بنج أو أي أدوات تعين على ذلك، وكان صراخه يهز أرجاء المعتقل، ترافقه الشتائم القذرة والقهقهات«.

(6)

جسد فائض الحياة... ميت

وضد سطوة الموت الباهظة كلها... يبتسم

رغم فداحة المشهد

ورغم الأعين المتشحة بالنظرة المجهولة

والجسد المسجّى على حمالة بائسة، يبدو متسخًا، شاخص النظرات، باهت الملامح، غائر الجراح.

مكومًا على آثار تعذيبٍ وحشية، وكأن قبائل من وحوشٍ تقاسمت نهش حياته.

عينٌ مطفأة بالموت وأعقاب السجائر، وأخرى تخفي الكدمات بمحجرها المتورم.

شعر الرأس منزوع حول جرح غائر ومتقيح، ناتج عن دق مسمار بالرأس، تيبست الدماء عليه، فرسمت خرطة عالم آخر.

البطن المنتفخة، الملابس المتسخة، التي لم يسمح له خلال 23 يوم

قضاها في بيوت الأشباح باستبدالها أو غسلها أو حتى غسل وجهه فيها.

كانت كلها تزيده مهابة، وجلالًا، وجمالًا، وكبرياء.

ضد رغبات قاتليه وعكس مشيئتهم تمامًا، وانحيازًا لرغبة الصمود والجسارة

الحياة المزروعة في سهول الخلود، تمدّ لسانها في وجه الموت البشع

الحياة النابتة في تُربة الإيمان بالقضية، تستبدّ بالقاتل الحقير

الحياة الواصلة بين الوطن ونضاله، تطيل العمر ضد مشيئة الموت

الحياة المتقدة بالصدق، تطفئ رغبة الموت في وأدها

الحياة الحقة ليست التي نعيشها، ولكنها التي نحياها

الحياة الحقة أن تستمر حيًا رغم موتك، والموت الحق أن تموت وأنت ما زلت تعيش.

كان الجلال سيد الساعة، كان الجسد المسجّى على الحمالة البالية، على اتساخه وغائر جراحه، يبدو مهيبًا جليلًا نظيفًا شاحذًا على الغضبة أكثر من الحزن، والفخر أكثر من الفقد، والانتصار أكثر من الألم، والكرامة أكثر من الفجيعة.

كان «سيف» وهو يرقد على حمّالته تلك، يبهر ناظريه بنصاعة نظراته المدفونة تحت غائر الجراح والكدمات وأعقاب السجائر.

كان فمه يبعث بابتسامة فارقة، حارقة، مستفزة، تقطر نصرًا

كلما تمعنت وجهه المكسو بجلال الحياة، في موته، بدا لك أن حديثًا يدور بينه وبين غمامة لا تراها ولكنها ستمطر على كل حال.

كلما تفحصت انتفاخ بطنه الذي يبعث على رائحة الغبن والحزن والأسى، بدا لك صوته ويجلجل بضحكاته الناصعة ويقول «الحياة كلها أن تموت وأنت مؤمن بقضيتك».

كلما حانت منك التفاتة صوب قدميه المحترقة، مخلوعة الأظافر، المكسوة بسواد ممض، بدت لك خطواته الراقصة وهو يقرأ كتابًا أو يكتب قصيدة أو يناقش في حدث ما.

كان يفعل كل ذلك واقفًا على قدميه... وكأنه يعدهما لمجابهة الحريق القادم.

وبقدر ما استطاع الموت والقاتلون أن يحولوه إلى جثة هامدة، تستبكي الحجر، لم يجنّحوا آلاف الحمائم خرجت من حمالته ترفرف بأجنحتها فوق الجموع حول المستشفى، وتغسل الوجوه، لا بالدمع، بل بالنظرات المنتصرة.

وهكذا... عند الساعة الخامسة من صباح السبت 21 أبريل فاضت روح صديقي وأخي الذي لم تلده أمي ولكنها قاسمته الحب واللهفة وفائض المحنة، وأستاذي ورفيقي الشهيد «سيف»

وهآنذا أكتب الشهيد للمرة الأولى، لأني الآن والآن فقط رأيته شهيدًا، يرفع قضيته بيده البيضاء المفتوحة، في وجه سلاحٍ ماكر فاجر

جبان، ويفتح صدره الأعزل في وجه آلة الغدر كلها، ويخرج منتصرًا، نحتفي بسيرته ونكتبها على قلب حر، الآن فقط أتوجه بتاج الشهادة الناصع.

(7)

في قسم الحوادث
في المستشفى العسكري
في أم درمان
هذه المنطقة المتناقضة
التي ترقد عندها محن قرون دولة السودان القديمة والحديثة
فالمستشفى العسكري بثكناته الحاكمة، يقابل قصر الشباب والأطفال، ويمدُّ لسانه.

وقصر الشباب المسكين هذا يقابل من الناحية الأخرى، الجمعية التأسيسية، التي لا تخرج من وهدةٍ حتى تقع في أخرى أفدح، الآن طافوا بسورها المهيب وأعملو مناشيرهم قصًا في أعمدته التي قيل إنها تشير إلى 25 مايو وعهد جعفر النميري، قصقصوها حتى صارت تشير إلى 30 يونيو، وكأن هذه الأنظمة لا تستطيع أن تعلن عن وجودها إلا بالأسوار فقط، وفي خاصرتها مسجد النيلين الذي ابتناه النميري ومضى قبل أن يؤسس فيه دولة خلافته، ورثه النظام كاملًا، مبانيه الجميلة ومعانيه الشائهة.

الآن انقلبوا على اسم «الجمعية التأسيسية» يبدو أن اسمها يثير حكّةً في قلوبهم وهم الذين لم يستطيعوا دخولها بصناديق الاقتراع، فدخلوها بدبابات الجيش، وسمُّوها، المجلس الوطني، وملأوا جنباته بالتعيين، فضاعت أحلام الشباب والأطفال، ومضى النيل لحال يبسه، وطفق مسجد النيلين يبارك تقارير المستشفى العسكري الخائنة، ويستغفر الله.

حين تمسي والعساكر على يمينك، والبرلمان الموبوء على يسارك والنهر أمامك، عليه جسر مضى يئن تحت ثقل الماضي، وفداحة الحاضر، وضبابية المستقبل، يئز أزًا ويناثر قطع حديده القديم في الماء، تعتقلك دبابة عند مدخله، وتضربك على مؤخرتك دبابة أخرى عند الضفة الأخرى، لا تكاد تحس بالنسيم الذي يغسل الجُزر تحته من فرط الغربة والهوان.

وترى كأن الماء قطعة مرآة ضخمة تنعكس عليها كل خيابتك، فتبدو عاريًا، تغمزك الجُزر، وتتحرش بك اليابسة.

(8)

على غير العادة منذ فترة طويلة أحسست براحةٍ كبيرة، حتى إنني عدلت رقدتي إلى جلسة كاملة، وطالعت عبر النافذة لأرى من تبقى من مرافقيّ صاحيًا، كانت الساعة تشير إلى الثالثة فجرًا، ضغطت على الجرس الذي يربطني بغرفة الممرضات، جاءت إحداهن منزعجة

يتساقط النوم خلفها، ابتسمت لها وقلت:

أنا آسف ياخي صحيتك، ممكن تديني كباية موية.

أنت كويس؟ مالك قعدت؟

أنا كويس خالص ومرتاح، داير أشرب بس، وبالله عليك شوفي لو ابتسام زوجتي برة صحيها لي.

لم تناقش مطلقًا، خرجت وعادت بالماء و«ابتسام»، كان الماء فاترًا، و«ابتسام» تغلي، يكاد البخار يتصاعد من عينيها المفتوحتين عن آخرهما.

التاج مالك؟ قالتها بصوت متهدج لا يكاد يسمع، فابتسمت لها، وأشرت لها بكوب الماء، شربته مرة واحدة، ووضعته على المنضدة الصغيرة، وأمسكت بيدها ضاغطًا بمودةٍ بالغة:

معليش صحيتك، لقيت نفسي مرتاح قلت أتقاسم معاك الدقايق دي.

لم تجبني، بل ضغطت على يدي وتساقط دمعها، وجلست على طرف السرير تنهنه.

يا ابتسام أنا صحيتك عشان نتونس لو دايرة تبكي قومي امشي واصلي نومك.

لا لا خلاص أنا كويسة، مسحت دمعها، وأصلحت جلستها.

عدت بها لكل المحطات التي مرت علينا، أنا أحكي ضاحكًا وهي

تومئ برأسها دامعة.

حررني الحزن والألم من كل قيود الخوف، غنيت لها غناءً هامسًا، أغنياتها التي تحبها، وقرأت معها أشعار «سيف»، وأجبرتها على إلقاء قصائدي التي تحفظها كلها تقريبًا، وكانت تغالطني فيها وتصلحني كثيرا فيها، ولم ننتبه في غمرة حوارنا الحميم ذلك إلى النافذة التي غصّت بالجميع يطالعون، تتقاسمهم المشاعر، ويعصف بهم الحزن

أنا داير أطلع اتمشى شوية

تتمشى كيف يا «التاج»؟ أنت مش ممنوع؟

ياخي لا ممنوع ولا حاجة، حا اتمشى بي أسلاكهم الكتيرة دي، لمليها كلها ختيها في الحامل دا وبدفرو قدامي ونتمشى.

ومشيت حتى آخر الممر نشيطًا، أكاد أطير، وجلست على كرسي بالقرب من غرفة الممرضات، أحكي وأحكي إلى أن داهمنا أذان الصبح، وصلينا سويًا في الممر، وحينما عدت وجدت رفاق العنبر كلهم يضعون أياديهم على رؤوسهم، ويتمتمون بأدعيةٍ دامعة فهي المرة الأولى التي يصحون فيها ويجدون سريري فارغًا.

غريبة هذه الدنيا، تمنحك طاقتها كلها، بعد أن تسلبك طاقتك كلها.

تشكّل حولك دوائر لا نهائية من الحس والروح، فتبدو وأنت تتكلم تحس بأزيز الطاقة ينبعث من صوتك وأسلاك الدماء والأدوية

التي تحيط بك، كأنك ملاك.

كل رفاق العنبر توهجوا يومها، وتحرروا من آلامهم، وغنينا، وتعانقنا، وضحكنا، وما إن جاء الأطباء للزيارة حتى بدأت حفلات الزجر والتوبيخ اليومية، عن مخالفة التعليمات وعدم الالتزام بالجرعات المكتوبة ووو.

لم أحفل بهم، الحياة أكبر من أن تؤخذ بالتعليمات.

الحياة أوسع من التزام برقدةٍ، أو تقيّدٍ بوصفةٍ، أو احتمالٍ لجرعاتٍ قاسية.

الحياة هي الحياة، هي أن تكون أنت لحظة تريد، وإن أفرطت في ذلك ومضيت إلى غيبوبتك، فقط تخشى بكاء من حولك، ولكنك تسبح في عوالم أخرى الماء فيها يشعّ بأنوارٍ غريبة، والتضاريس فيها تحفك بطمأنينةٍ فريدة، والروح فيها تطير بآلاف الأجنحة المضيئة.

الحياة أن تمضي كما مضى «سيف» شارعًا أقلام قضيته في ورق الكون البيضاء، فباتت تدبّج مقالةً من الصمود والجسارة والخلود.

والموت أن يظل السجان، سجينًا في ضعفه وانكساره، وهوانه على نفسه قبل الناس، وأن يظل المريض خائفًا من الرحيل فيُضيع الحياة.

الموت أن تخشى الموت.

والحياة أن تصارح الكون بمشاريعك كلها دفعةً واحدة، فتطير كحمامةٍ عاشقة، وتسبح كدولفينٍ يصارع الأمواج لإنقاذ كائنٍ لا

ينتمي لفصيلته، ولن يلتقيه مرة أخرى، وتجري كفرسٍ وحيد في سباق الأبدية.

(9)

ضجّ الكون من حولي

هرجٌ واضح في الغرفة، الأطباء، وهم يتحركون بعصبية، ويتداعون حول سريري، كانت الممرضات قد أعدنني إلى نفس هيئة رقدتي الأولى، وشرعت أنا في حالة هياج عظيمة جراء تقاطع الأجهزة والأسلاك، تطعنني إبرة من كل اتجاه، وأحس بوخز النقاط تخترقني من الحامل، يقف طبيب هناك عند نهاية الغرفة يلوم «ابتسام» على مغامرتي بالقيام من سريري تلك، أنا أراقبها لا تكاد تخالفه، ولم تكد تخالفني، عبر النافذة أختها تمسك «سيف» وهو يبكي ويمدّ بيديه نحونا، جماعة كبيرة تلتصق بالنافذة وجيوش من العاملين بالمستشفى يحولون بينهم وبين البقاء هناك، وأنا أحس بسيل من جمر يتمشى في عظامي كلها، يكاد ينشر لهيبه عبر عيوني، صوتي لم يعد مسموعًا مطلقًا، وكأني أغوص في بئر لا تعرف لقرارها قرارًا، أطالع السقف فأرى «أمي» و«أبي» وجدّي الإمام «طه ود بشير» وابنه «أحمد» الذي لم تأخذه محرقة «القيقر»، ويقف «جدّى» ممسكًا بالعمامة والسيف والمسبحة والخاتم في زهوٍ بالغ، من خلفهم أرى كل الجموع التي كانت تجرى نحو نيران التّرك يتطاير اللهيب من قلوبهم كفراشاتٍ

فريدة الألوان، وكأنها تجري نحو مواسم حصادها لا حتفها، كأنها تشك الموت بحربة الحياة فيأخذهما معًا ويمضي غير آبه.

تصطك أسناني، بدرجةٍ لا تحتمل، يقف «سيف» بأصبعه الذي أتلفه مسمارٌ حاقد، ورأسه المشجوجة بلا رحمة، وأعينه المتورمة تحت حريق أعقاب السجاير، واقفًا، كملاكٍ أسمر، وهناك في نهايات السقف تصطف جموع لا أكاد أتبينها ولكنها تمد أصابعها نحوي.

يسرع بي رجالٌ يقودون حمالتي إلى المجهول.

حولوني لغرفةٍ أخرى، ليس بها سواي وضجيج الأجهزة، وحيرة الفريق الطبي الواضحة

وما زالت ترفل في بياضها الأسود.

بياضها المشبوه، المتحرش.

بياضها الحار، يساقط حبّات العرق مني، وحتى من ظهر أنابيب المحاليل المعلقة فوقي، وحتى من صدر السقف، لكأنه سيمطر.

البياض المتحالف مع سطوة الموت.

البياض الفادح.

ما عدت أحسّ شيئًا.

ما عدت أحفل بشيء مطلقًا.

عالمي كلّه معلقٌ أمامي في السقف، السقف الذي كنت أهرب إليه حين الغناء، عاد يجمع حولي الغناء والحياة والموت جميعًا.

لم أعد أحسّ بأصابعي، ولكني أستشعر وخزًا ما، بين عينيّ وأذني، وكأنه شريط من أمواسٍ متراصّة تتناوب في الغوص، تتحول برهةً لغمامةٍ من ونس، أستعيد معها كل صور حياتي، تمر أمامي كلها، فأضحك، وأبكي، وأحزن، وأفرح، وأغتاظ، وأسامح، ولا أبالي، والحياة تمرّ بموكبها أمامي.

دموع أمي تغسلني من كل خطيئة، ونظرات أبي المنطفئة تهيئني لجسارة الأسئلة

بكاء «سيف» الصغير وهو يمدّ يديه نحوي، يعيدني إلى عمامة جدي فتخترقني رصاصةً من حب، لا تقتلني ولكنها تمنحني يقينًا غير مثقوبٍ، بالغد.

البصر غائب لمشيئة البصيرة الثاقبة.

السمع راحل لموكب التنصت الروحي.

الأشياء تنسحب من حولي شيئًا فشيئًا.

وأحسّ كأني أغوص عميقًا، عميقًا.

تتحول الغرفة لكومة قطن عملاقة، تأخذني إليها، أبدو ملتصقًا بها، واثقًا في دفئها ونعومتها، ولكنّي أبدًا بالاختناق.

أصرخ.

أصرخ.

وكأن لا أحد يسمعني، فملامح ساكني السقف في نفس هدوئها

الأول.
أصرخ، وأنا أغوص.
لا نفَس
لا حركة.
ولا حتى صوتٌ للصراخ.

تنتشلني قصاصة «سيف» التي كان أعطاها والده في يوم استعداده لرحلة موته الحيّة تلك، وقبل أن تبدأ محرقة العربة «البوكس» التي رابطت أمام منزلهم لساعات.

تنتشلني كمركبٍ أخيرة تغادر الجزيرة صوب المنازل بعد يومٍ من العرق وصرّة الوجه.

تنتشلني كضحكةٍ ضحكتها أمي يومًا، وظلّت تلاحقني بطعمها ولونها ورائحتها أينما خطوت.

تنتشلني كعالمٍ من حريرٍ، في شوك مماتي.

«عزيزي التاجٍ
لا وقت، لم يترك لنا الموت وقتًا.
هكذا بلا زمن قد لا يتاح بيننا دائمًا هنا.... هنا هذه لم أفهمها إلّا الآن، حتى كدت أكتبها هناك.
أن تموت يا صديقي وأنت تحتفظ بكل عنفوان الحياة... تتكسّر

سطوة الموت.

موتك لن يفشي سرّ الحياة، الصاخبة، النابهة، الضاربة في أعماق الحضور الفتّاك.

كل سرٍّ تفشيه السنوات بالموت، ولكن أن تموت وأنت ممسكٌ بأطرافه، تُدخله في نفق الحياة، عكس مشيئته المعتادة.

أن تترك للموت فقط فرصة أن يتشبث بالحياة كي يعبّر عن نفسه، ويدخل رغمًا عن كل جدّته ونصاعته وقدرته على الخروج بك لعوالمه، فأنت المنتصر عليه لا هو.

بحفاظك على نصاعة وجدّة أسرارك كلها، وحضورك الباهر ذلك، يأتي الموت ليمد يديه صوب طلاسمك المعقدة، ويخسر جولاته كلها لأنك أنت حقًا «تاج السر» واستثناءاته كلها، وكينونة معادلاته، ونقطة التقاء المتضادات، ومركز كون أفعاله وانفعاله وتفاعلاته تلك.

أنت التاج الذي سيظلّ محض حقيقةٍ نافذة، ومحض خيالٍ نفّاذ.

محض يقينٍ ثابت، ومحض شكوكٍ متحركة.

محض روحٍ خرافية الوجود، ومحض مادةٍ تعود إلى تشكيلات مكوناتها كلها، ولكنها لا تذوب فيها.

تبقى أنت فقط تاج السر، وتاج الحياة.

لم تكن يومًا تاجًا للموت، لأن الموت لا تاج له يا صديقي.

تاجا للنهر، تجري مع أمواجه المتلاطمة، أحداثٌ، وحوادث،

ويبقى ما بين الضفاف نهر آخر وأمواج أخر

تاجًا للنهر، كلما انقطعت موجة من حبل ابتسامته الوديعة، وصلته أمواجٌ متلاطمة وطفقت أنت تحفر في قلب الكون دمًا، وعطرًا، ومضغة نعناع طاعمة»

ومضى «سيف» لغيابته تلك..

وبدأت أنا أسمع من كونٍ آخر صوت بكاءٍ يأتيني ناعمًا كابتسام، وحميمًا كقصيدة، ودافئًا كغرفة الأصدقاء، وحزينًا كضحكة أمّ.

أتنفّس في غيابتي هذه، برئة نهرٍ جيّاش، وبحاسة موتٍ نفّاذة، كل حيواتي الأثيرة الماضية.

أتحسس صهد التربة المقبلة، ببرودة موتٍ فادحة.

وأعلك نعناعة الحنين الأبدي، للبلاد التي كلما دهستها الظلمةُ، أضاءت.

انتهت

أسامة معاوية الطيب

بروكسل 2018 م

صدر للكاتب

- صدرت للكاتب مجموعة قصصية بعنوان شجرة الذاكرة عن دار الفارابي في لبنان العام 2008 م .

إن المطايا تشتكيك لأنّها... تطوي إليك سَبَاسِبًا ورِمالا
فإذا رحَلْنَ بنا رَحَلْن مُخِفَّةً... وإذا رجِعْنَ بنا رجعن ثِقالا

أبو العتاهية

الفهرس

- أغنيات الحنين 11
- أغنيات البشارة 81
- أغنيات الرحيل 119
- أغنيات الجسارة 181